الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام
وآثاره في تفسير القرآن الكريم

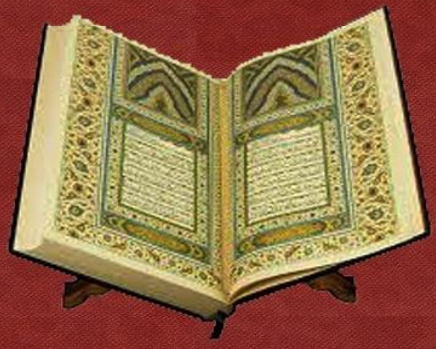

عماد الكاظمي

الكاظمية للتأليف والتحقيق والنشر

الكتاب: الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام وآثاره
في تفسير القرآن الكريم.
المؤلف: عماد الكاظمي.
الطبعة: الثانية.
المطبعة: دار الرافد – قم.
الناشر: الكاظمية للتأليف والتحقيق والنشر.
السنة: ١٤٤٢هـ ٢٠٢١م.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٣٩٢) لسنة ٢٠١٣م

الإهداء

إلى سيدي ومولاي أبي جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام ..

إلى مَنْ تشرفت بالخدمة في رحاب بقعته المباركة ..

أقدم هذا الجهد عسى أنْ ينال القبول ..

فتقبل من عبدك تحفته المتواضعة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله الذي أخرج عباده من الظلمات إلى النور بإذنِه، والصلاة على المبعوث رحمة للعالمين بمنِّه وكرمِه، وعلى الأئمة الهداة للأمة بنوره وفضلِه.

إنَّ للمسلمين تراثًا كبيرًا حافلًا بما تحتاجه الإنسانية في أدوارِ حياتها المختلفة، ويُعد القرآن الكريم أساس ذلك الإرث الإسلامي؛ لأنه من عند الله تعالى العليم الحكيم، حيث جعل للبشرية نظامًا متكاملًا يحقق سعادتهم ويهديهم إلى الصراط السوي في جميع تلك المجالات، وذلك من خلال تعاليمه التي تضمَّنَها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فالقرآن الكريم هو الدستور السماوي الذي ينظم حياة المسلمين وشؤونهم؛ لأجل ذلك كان الاهتمام به تلاوةً وفهمًا وتعلُّمًا من أهمِّ أولويات المسلمين في التعامل مع كتاب الله تعالى في جميع العصور منذ اليوم الأول لنزولِ الوحي إلى يومنا، وقد كانت البذرة الأولى لذلك هي تلك التعاليم المقدسة التي كانت من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي حثت على تلاوةِ القرآنِ وفهمِ معانيهِ والتدبرِ في آياتهِ، واتِّخاذهِ إمامًا في كُلِّ مفاصل الحياة، فكانت سيرته صلى الله عليه وآله وسلم تجسِّدُ معاني القرآن الكريم، حيث كان يؤكد ذلك الاهتمام من خلال تلاوة القرآن على أصحابه، وتفسيره لهم آيةً آيةً، بل كلمةً كلمةً؛ ليفهموا كلام الله؛ ويؤكد لهم عظمته وقدسيته وأهميته في حياتهم، وتُعَدُّ هذه أولى أدوار تفسير القرآن

الكريم، والذي يُعرف ٱصطلاحًا بـ(التفسير بالمأثور)، ثم تابع ذلك بخطوات عدة، منها الاهتمام الخاص ببعض أصحابه وأهل بيته في معرفة حقيقة القرآن وفهمِ أسراره ومعانيه؛ لينشروا ذلك بين المسلمين، وقد تجلى هذا الاعتناء في كثرة الأحاديث الواردة في فضل القرآن الكريم، وما ورد عنهم في تفسير آياته؛ كونهم عِدْلَ القرآنِ الكريم والأعرف بفهمِ مقاصده ومعانيه.

نحاول في هذا الصفحات بيان بعض ما ورد من الروايات التفسيرية للآيات المباركة عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، بما وردت في التفاسير وكتب الحديث، وما سيتم بيانه إنَّما هو ٱستكمال لمشروعنا القرآني في الروايات التفسيرية الواردة عن الأئمة عليهم السلام، وعرضها على وفق منهج الثقلين، فنسأله تعالى التوفيق لإتمام ذلك؛ خدمة لكتاب الله تعالى.

عماد الكاظمي
الكاظمية المقدسة
الأحد ٣٠ ذو القعدة الحرام ١٤٤٢هـ
١١ تموز ٢٠٢١م
الذكرى السنوية لوفاة الإمام
الجواد "عليه السلام"

تمهيد: التفسير بالمأثور وأثره في التفاسير القرآنية.

يعد التفسير بالاعتماد على الروايات الشريفة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام والصحابة هو منهج من مناهج التفسير للقرآن الكريم، والذي يُعرف بـ(التفسير بالمأثور)، ويمكننا أنْ نتعرف على ذلك بإيجاز من خلال بيان معنى (التفسير، والأثر) كما ذكره العلماء، فالتفسير هو: ((كَشْفُ الْمُرَادِ عَنِ اللَّفْظِ الْمُشْكِلِ))[١]، أو هو: ((عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ فَهْمُ كِتَابِ الله الْمُنْزَلِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ "صلى الله عليه [وآله] وسلم"، وَتَبْيِيْنُ مَعَانِيْهِ، وَاسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِهِ وَحُكْمِهِ))[٢]، والأثر هو: ((أَعَمُّ مِنَ الْخَبَرِ وَالْحَدِيْثِ، وَقِيْلَ: مُسَاوٍ لِلْخَبَرِ))[٣]، فيكون هذا التفسير ٱستناده إلى الروايات فقط، وهو تفسير يجب على المفسر للقرآن الكريم أنْ يكون على ٱطلاع واسع بالروايات التفسيرية للآيات المباركة، وورد في بيان ذلك: ((إِنَّ وَاجِبَ الْمُفَسِّرِ هُوَ مُلَاحَظَةُ الْأَحَادِيْثِ الْوَارِدَةِ فِيْ التَّفْسِيْرِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وَأَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام، وَالْغَوْرُ فِيْهَا؛ لِيَعْرِفَ طَرِيْقَتَهُمْ، ثُمَّ يُفَسِّرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ بِالْمَنْهَجِ الَّذِيْ يُسْتَفَادُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَأْخُذَ بِالْأَحَادِيْثِ الَّتِيْ تُوَافِقُ الْكِتَابَ، وَيَطْرَحُ مَا عَدَاهَا))[٤].

وبعد هذه النبذة الموجزة عن التفسير بالمأثور نبيِّن تلك الروايات الشريفة للإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، مع بيان

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي ١/ ٣٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ١/ ٢٧.
(٣) معجم مصطلحات الرجال والدراية، محمد رضا جديدي نزاد ص١٤.
(٤) القرآن في الإسلام، السيد محمد حسين الطباطبائي ص٧٠.

مدلول تلك الروايات، وقد آخترت آثنتي عشرة آية مباركة للإيجاز، فللإمام روايات متعددة وفي أبواب مختلفة، كالعقائد والفقه والأخلاق وغيرها.

وإنَّ هذه الروايات الشريفة مما أغنت المكتبة الإسلامية في تفسير القرآن الكريم بالمأثور، وهي -في الوقت نفسه- بحاجة إلى تسليط الضوء عليها في الدراسات القرآنية لمعرفة ما تتضمنه من معرفة وآثار، فالروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم كثيرة، وقد تغني الباحث بما ورد فيها في أبواب متعددة، ونحاول في هذه الصفحات أنْ نسلط الضوء بإيجاز على تلك الروايات التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام؛ لننهل من ثِقْلِ الكتاب المعين الصافي لوحي الله تعالى، فهم أهل الذكر وخاصته الذين أمر الله تعالى عباده بالرجوع إليهم، إذ قال عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾[1].

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧.

- **الآية الأولى:**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

* روى عبد العظيم الحسني[2] عن أبي جعفر محمد بن علي الرضا عليهما السلام في حديث طويل: ((قَالَ: قُلْتُ يَا ابْنَ رَسُوْلِ اللهِ فَمَا مَعْنَى قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؟

قَالَ: الْعَادِيْ السَّارِقُ. وَالْبَاغِيْ الَّذِيْ يَبْغِيْ الصَّيْدَ بَطَرًا أَوْ لَهْوًا لَا لِيَعُوْدَ بِهِ عَلَى عِيَالِهِ، لَيْسَ لَهُمَا أَنْ يَأْكُلَا الْمَيْتَةَ إِذَا اضْطُرَّا، هِيَ حَرَامٌ عَلَيْهِمَا فِيْ حَالِ الاضْطِرَارِ، كَمَا هِيَ حَرَامٌ عَلَيْهِمَا فِيْ حَالِ الاخْتِيَارِ ....))[3].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبين مسألة من المسائل التي استعرضتها الشريعة الإسلامية المقدسة، وبينت أحكامها وحدودها وآثارها، فالآية المباركة في مقام بيان بعض المحرمات التي حَرَّم الله تعالى على عباده أكلها، فذكرت أربعة منها (١- الميتة. ٢- الدم. ٣- لحم الخنزير. ٤- ما أُهل لغير الله)، وهذه المحرمات قد استثنيت عند الاضطرار إليها، ولكن بشرط أنْ يكون الاضطرار

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٣.

(٢) أبو القاسم عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، من أصحاب الإمام الجواد والهادي عليهما السلام، ورد الري هاربًا من السلطان، أثنى عليه الأعلام، ووردت روايات متعددة عنه. ينظر: معجم رجال الحديث، السيد أبو القاسم الخوئي ١١/ ٥٠.

(٣) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي ٩/ ٩٧.

من دون عدوان أو بغي، ولأجل أنْ نكون على بينة مما ورد في الرواية الشريفة وما تضمنته من أحكام نحاول بيان موضوعات ثلاثة:

الأول: تعريف الباغي والعادي.

الثاني: أقوال المفسرين.

الثالث: آيات الأحكام.

- **الأول: تعريف الباغي والعادي.**

١- الباغي: قال الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ/ ١١٠٨م): ((الْبَغْيُ طَلَبُ تَجَاوُزِ الاقْتِصَادِ فِيمَا يَتَحَرَّى تَجَاوُزَهُ، أَوْ لَمْ يَتَجَاوَزْهُ، وَالْبَغْيُ عَلَى حِزْبَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَحْمُوْدٌ، وَهُوَ تَجَاوُزُ الْعَدْلِ إِلَى الإِحْسَانِ، وَالْفَرْضِ إِلَى التَّطَوُّعِ. وَالثَّانِيْ: مَذْمُوْمٌ، وَهُوَ تَجَاوُزُ الحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، أَوْ تَجَاوُزُهُ إِلَى الشُّبَهِ .... فَالْبَغْيُ فِيْ أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ مَذْمُوْمٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أَيْ غَيْرُ طَالِبٍ مَا لَيْسَ لَهُ طَلَبُهُ، وَلَا مُتَجَاوِزٌ لِمَا رُسِمَ لَهُ))[١].

٢- العادي: قال الراغب: ((مِنَ الاعْتِدَاءِ، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَمِنْهُ التَّجَاوُزُ وَمُنَافَاةُ الالْتِئَامِ .... وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ وَلَا عَادٍ أَيْ مُتَجَاوِزٌ سَدَّ الْجُوْعَةِ. وَقِيْلَ: وَلَا عَادٍ فِيْ الْمَعْصِيَةِ))[٢].

وذكر الشيخ فخر الدين الطريحي (١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م) مثل ما تقدم من انصراف البغي إلى التجاوز على الحدود والحقوق، وكذلك العادي وقد ذكر

(١) المفردات في غريب القرآن (بغي) ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه (عاد) ص٣٢٧.

لذلك مصاديق متعددة تنطبق على البغي كما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة[١].

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

ذكر المفسرون ما يتعلق بهذه الآية الشريفة وتفصيل ذلك، فنذكر منها إجمالًا:

١- قال الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٩٢م) فيما يتعلق بمفهوم الاضطرار: ((يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾، فَمَنْ حَلَّتْ به ضَرورةُ مجاعةٍ إلى ما حُرِّمَتْ عليكُمْ من الميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ وما أُهِلَّ بهِ لغيرِ الله -وهو بالصفة التي وصفنا- فلا إثمَ عليهِ في أكلهِ إنْ أكلَهُ. وقد قيل: إنَّ معنى قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾، فمَنْ أُكرهَ على أكلهِ فأكلَهُ، فلا إثمَ عليهِ))[٢].

إنَّ ما ذكره الطبري من تفسير هو المعنى المعهود للاضطرار إلى شيء، فالحكم الشرعي يبيح للمضطر ما لا يبيح لغيره على مقدار الضرورة من دون زيادة، لتلافي الهلاك الذي قد يصيب الإنسان، وفي ذلك حفظ من المشرِّع للناس من ضرر الهلاك، فالاضطرار كما تم تعريفه هو: ((الحالةُ التي يكونُ فيها مَنْ نزلتْ به ضرورةٌ، أو الشدَّةُ التي لا دافعَ لها إلا ما ٱضطرَّ إليهِ، أو حالَةٌ ناتجَةٌ عن نزولِ أمرٍ يتسبَّبُ عنه تلفُ النفسِ، أو أحدِ الأعضاءِ، أو نزولُ مكروهٍ لا يمكنُ ٱحتمالُهُ، أو يشقُّ ٱحتمالُهُ مشقَّةً شديدَةً))[٣]، وقد ورد في ذلك الضرورات تبيح المحظورات على تفصيل في مورده.

---

(١) ينظر: مجمع البحرين ١/ ٥٤-٥٦ (بغا).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ٣٢٠.

(٣) معجم لغة الفقهاء، الدكتور محمد قلعجي ص٧٣.

ثم ذكر الطبري تفاسير ثلاثة لبيان قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ ٱعتمادًا على الروايات الواردة فيها، نذكر ذلك لأهميته إيجازًا، حيث قال في بيان القول الأول: ((وأما قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فإنَّ أهلَ التأويلِ في تأويلهِ مختلفونَ، فقالَ بعضهم: يعني بقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ غيرَ خارجٍ على الأئمةِ بسيفِهِ باغيًا عليهِمْ بغيرِ جَوْرٍ، ولا عاديًا عليهِمْ بحربٍ وعدوانٍ، فمفسدٌ عليهِمُ السبيلَ. عن مجاهد يقول: لا قاطعًا للسبيلِ، ولا مفارقًا للأئمةِ، ولا خارجًا في معصيةِ الله، فلهُ الرخصةُ، ومَنْ خرجَ بَاغيًا أو عاديًا في معصيةِ الله فلا رخصةَ له وإنِ ٱضطُرَّ إليهِ)) [١].

إنَّ هذا القول ظاهر الدلالة في ٱنطباقه على بعض المصاديق التي وردت فيه الروايات المتقدمة، وإنْ كان المعنى أعم من مصاديقه، وعدم شمول الرخصة للباغي والعادي كما أشارت إليه رواية الإمام الجواد عليه السلام.

وقال في بيان القول الثاني: ((قال آخرون في تأويل قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ غيرَ باغٍ الحرامَ في أكلِهِ، ولا معتدٍ الذي أبيحَ له منه. عن قتادة قال: غيرَ باغٍ في أكلهِ، ولا عادٍ: أنْ يتعدَّى حلالًا إلى حرامٍ، وهو يجدُ عنه مَندوحَةً. قال ٱبن زيد: أنْ يأكلَ ذلكَ بَغيًا وتعديًّا عن الحلالِ إلى الحرامِ، ويتركَ الحلالَ وهو عنده، ويتعدَّى بأكلِ هذا الحرامِ. هذا التعدي ينكرُ أنْ يكونا مختلفَيْنِ، ويقولُ هذا وهذا واحِدٌ)) [٢].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٣٢٣-٣٢٤.

إنَّ هذا القول يؤيد المفهوم العام لمعنى البغي والاعتداء من غير النظر إلى المصاديق، أو تقيده بها؛ ليكون الإنسان على بينة بأنَّ لكُلِّ تصرُّفٍ حدودًا معينة واضحة قد بينتها الشريعة المقدسة وهي واضحة جلية، ويجب على الإنسان أنْ يكون على بينة منها؛ لئلا يقع في ٱرتكاب المحرمات، وهذا المعنى يمكن أنْ يكون أكثر تربية للإنسان على المستوى الشخصي والاجتماعي، وإنْ كان مورد نزول الآية لواقعة معينة.

وقال في بيان القول الثالث: ((فمن ٱضطرَّ غيرَ باغٍ في أكلهِ شهوةً، ولا عادٍ فوقَ ما لا بُدَّ لَهُ منه))[١].

إنَّ هذا القول الأخير يمكن أنْ يكون من ضمن القول الثاني بوجه عام، وإنْ كان قد تم تحديده بالشهوة التي تقود صاحبها إلى ٱرتكاب المحرمات، وفي ذلك تحذير للإنسان من الانقياد وراء الشهوات، وما يتطلب منه من معرفة تامة، فضلًا عن العمل الذي هو بمثابة الجهاد الأكبر كما ورد في روايات جهاد النفس.

٢- قال الطبرسي (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) في بيان ما يتعلق بالاضطرار ذاكرًا قولين في بيان المراد منه حيث قال: ((﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلى أكلِ هذهِ الأشياءِ ضرورةَ مجاعةٍ عن أكثرِ المفسرينَ، وقيل: ضرورةَ إكراهٍ. وتقديرهُ فمَنْ خافَ على النفسِ من الجوعِ ولا يجدُ مأكولًا يسُدُّ به الرمقَ))[٢].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ٣٢٤.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ١/ ٤٦٧.

إنَّ هذا التفسير للاضطرار كما تقدم بيانه يقابل الاختيار الذي يمرُّ به الإنسان، ولكنه أشار إلى الشق الثاني من تفسير الاضطرار في هذه الآية وهو الإكراه على أكل المحرمات، وبيان الحكم الشرعي له، فقد يكون الإنسان غير مضطر ٱضطرار مجاعة، ولكن يكره على فعل الحرام كراهة لا يمكن تحملها عادة، وهذا المعنى لم تشر إليه رواية الإمام الجواد عليه السلام، بل ٱستعرضت الرأي الأول المتقدم للاضطرار.

وأما فيما يتعلق بالبغي والاعتداء فقال: ((وقوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قيل: فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: غيرَ باغٍ اللذةَ، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سَدَّ الجوعةِ. وثانيها: غيرَ باغٍ في الإفراطِ، ولا عادٍ في التقصيرِ. وثالثها: غيرَ باغٍ على إمامِ المسلمينَ، ولا عادٍ بالمعصيةِ طريقَ المحقينَ، وهو المرويُّ عن أبي جعفرٍ وأبي عبد الله وعن مجاهد وسعيد بن جبير))[1].

٣- قال السيد الطباطبائي (ت١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م) في بيان متعلق الاضطرار في جواز الأكل: ((قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي غيرُ ظالمٍ، ولا متجاوزٍ حَدَّهُ، وهما حالانِ عاملُهُما الاضطرارُ، فيكونُ المعنى فمنِ ٱضطرَّ إلى أكلِ شيءٍ مما ذكرَ من المنهياتِ ٱضطرارًا في حالِ عدمِ بغيهِ، وعدمِ عَدْوِهِ، فلا ذنبَ لَهُ في الأكلِ، أما لو ٱضطرَّ في حالِ البغيِ والعدوِ كأنْ يكونا هما الموجبينَ للاضطرارِ فلا يجوزُ له ذلكَ))[2].

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ١/ ٤٦٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١/ ٤٢٦.

إنَّ هذه التفسيرات تبيِّن بوضوح ما يتعلق بهذه المحرمات التي وردت في الآية المباركة، وأشارت إليها الرواية الشريفة للإمام الجواد عليه السلام، وما يتعلق بجواز تناول ذلك عند الاضطرار، وقد وردت روايات تفسيرية متعددة عن الأئمة عليهم السلام في تفسير الآية المباركة[١].

- **الثالث: آيات الأحكام.**

قد تبيَّن من خلال ما تقدم أنَّ هذه المحرمات الأربعة المذكورة لا يجوز تناولها إلا في حال الاضطرار، وقد أفاد النص جواز ذلك للذي يتناوله في حال معين، وعُدَّت هذه الآية المباركة من آيات الأحكام التي ذكرها العلماء في كتاب الأطعمة والأشربة، قال الشيخ فاضل الجواد الكاظمي (ق١١هـ): ((فلا إثمَ عليهِ، لا ذنبَ ولا تحريمَ عليهِ في التناولِ، إنَّ اللهَ غفورٌ لما فعلَ، رحيمٌ يرخصُ مثلَ ذلكَ حالَ الضرورةِ، وقد سلفَ الوجهُ في الجمعِ بينَ الوجهينِ، قال القاضي: فإنْ قيلَ: إنَّما يفيدُ قصرَ الحكمِ، وكم من حرامٍ لم يذكر، قلتُ: المرادُ قصرَ الحرمةِ على ما ذُكِرَ مما ٱستحلُّوه لا مطلقًا، أو قصرَ حرمتهِ على حالِ الاختيارِ، كأنَّه قيل:إنَّما حُرِّمَ عليكُمْ هذهِ الأشياءَ ما لم تضطرُّوا إليها))[٢].

فالحكم الشرعي المستفاد من الآية المباركة ظاهر في إفادة الإباحة عند الاضطرار في حالات خاصة.

(١) البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني ١/ ٣٨٠-٣٨١.

(٢) مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام ٤/ ١٥٢.

وقال الشيخ باقر الإيرواني عند بيانه لحال المضطر: ((عرفنا حرمةَ تناولِ كُلِّ ما ٱنطبقَ عليهِ أحدُ العناوينَ السابقةِ، ولكن ينبغي ٱستثناءُ حالةِ الاضطرارِ فإنَّه يجوزُ التناولُ بالمقدارِ الذي ترتفعُ به الضرورةُ.... وينبغي أنْ يكونَ واضحًا أنَّ الأكلَ على الباغي والعادي وإنْ كانَ محرَّمًا شرعًا، ولكنَّهُ يلزمُ ٱرتكابَهُ عقلًا من بابِ ٱرتكابِ أخفِّ القبيحينِ، وأهونِ المحذورينِ، كما هو واضحٌ))[1].

فمنهج الثقلين في بيان الحكم الشرعي ظاهر، وإنَّ الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام قد بيَّنت ذلك وأكدته، مع بيان بعض المصاديق للبغي والاعتداء.

(١) دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام ١/ ٦١٧-٦١٨.

- **الآية الثانية:**

قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُوْنَ إِلَّا كَمَا يَقُوْمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾[1].

* روي عن أحمد بن محمد بن عيسى في نوادره، عن أبيه قال: ((إِنَّ رَجُلًا أَرْبَى دَهْرًا مِنَ الدَّهْرِ، فَخَرَجَ قَاصِدًا أَبَا جَعْفَرٍ الْجَوَادَ عليه السلام. فَقَالَ عليه السلام لَهُ: مَخْرَجُكَ مِنْ كِتَابِ الله يَقُوْلُ اللهُ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾، وَالْمَوْعِظَةُ هِيَ التَّوْبَةُ فَجَهْلُهُ بِتَحْرِيْمِهِ ثُمَّ مَعْرِفَتُهُ بِهِ، فَمَا مَضَى فَحَلَالٌ، وَمَا بَقِيَ فَلْيَتَحَفَّظْ))[2].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبين مسألة مهمة من المسائل التي ٱستعرضتها الشريعة الإسلامية المقدسة، وبينت أحكامها وحدودها وآثارها، فالآية المباركة في مقام بيان ما يتعلق بالربا وحرمة الأموال التي يحصل عليها الإنسان وهو عالم بذلك من جانب، وما يتعلق بجهله من جانب آخر، ولأجل أنْ نكون على بينة مما ورد في الرواية الشريفة وما تضمنته من أحكام نحاول بيان موضوعات ثلاثة بإيجاز:

الأول: تعريف الربا وأنواعه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(٢) وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي ١٨/ ١٣١ باب (حكم من أكل الربا بجهالة أو غيرها ثم تاب أو ورث مالًا فيه ربا) الحديث ١٠.

الثاني: أقوال المفسرين.

الثالث: آيات الأحكام.

- **الأول: تعريف الربا وأنواعه.**

إنَّ تعريف الربا لغة يطلق عمومًا على الزيادة، وهذا ما ذكره اللغويون في معاجمهم، قال ٱبن فارس (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م): ((الرَّاءُ وَالْبَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ وَكَذَلِكَ الْمَهْمُوْزُ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الزِّيَادَةُ وَالنَّمَاءُ وَالْعُلُوُّ. تَقُوْلُ مِنْ ذَلِكَ: رَبَا الشَّيْءُ يَرْبُوْ إِذَا زَادَ. وَرَبَا الرَّابِيَةَ يَرْبُوْهَا إِذَا عَلَاهَا))[١].

وقال ٱبن منظور (ت٧١١هـ/ ١٣١١م): ((رَبَا الشَّيْءُ يَرْبُوْ رُبُوًّا وَرِبَاءً زَادَ وَنَمَا، وَأَرْبَيْتُهُ نَمَّيْتُهُ ....وَقَدْ تكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِيْ الْحَدِيْثِ، وَالْأَصْلُ فِيْهِ الزِّيَادَةُ مِنْ رَبَا الْمَالُ إِذَا زَادَ وَٱرْتَفَعَ، وَالْاسْمُ الرِّبَا مَقْصُوْرٌ))[٢].

إنَّ هذا المعنى هو الصريح لهذا اللفظ عند كُلِّ مَنْ عَرَّفه وذكر بيانه وٱشتقاقاته، وقد ذكروا كذلك ٱنطباقه على الربا في الاصطلاح؛ لاشتهاره به.

وتعريفه ٱصطلاحًا فهو يشمل القِسمين المعهودين في الشريعة المقدسة، وقد ذكر الفقهاء عامة تعريفه وبيان أقسامه معًا في الغالب، قال الشهيد الثاني (ت٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م): ((بَيْعُ أَحَدِ الْمُتَمَاثِلَيْنِ بِالْآخَرِ، مَعَ زِيَادَةٍ فِيْ أَحَدِهِمَا حَقِيْقَةً أَوْ حُكْمًا، أَوِ ٱقْتِرَاضُ أَحَدِهِمَا مَعَ الزِّيَادَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُوْنَا مُقَدَّرَيْنِ بِهِمَا))[٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (ربا).

(٢) لسان العرب مادة (ربا).

(٣) مسالك الإفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام ٣/ ٣١٦.

وقال السيد الخوئي (ت١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) في تعريفه وبيان أقسامه: ((وَهُوَ قِسْمَانِ الْأَوَّلُ: مَا يَكُوْنُ فِيْ الْمُعَامَلَةِ. الثَّانِيْ: مَا يَكُوْنُ فِيْ الْقَرْضِ .... أَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ بَيْعُ أَحَدِ الْمِثْلَيْنِ بِالْآخَرِ مَعَ زِيَادَةٍ عَيْنِيَّةٍ فِيْ أَحَدِهِمَا))[1].

وقد تبيَّن مما تقدم أنَّ الربا يقسم على قسمين معينين أحدهما في البيع والآخر في القرض، وهذا ما أكده الفقهاء في مؤلفاتهم، قال المحقق الحلي (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م): ((وَهُوَ يَثْبُتُ فِيْ الْبَيْعِ مَعَ وَصْفَيْنِ، الْجِنْسِيَّةِ وَالْكَيْلِ أَوِ الْوَزْنِ، وَفِيْ الْقَرْضِ مَعَ اشْتِرَاطِ النَّفْعِ))[2].

- الثاني: أقوال المفسرين.

إنَّ المفسرين قد ذكروا ما يتعلق بهذه الآية الشريفة من أقوال بتفصيل وبيان، أذكر منها إجمالًا:

١- قال الطبري فيما يتعلق بالموعظة والتوبة: ((يَعْنِيْ بِـ"الْمَوْعِظَةِ" التَّذْكِيْرَ وَالتَّخْوِيْفَ الَّذِيْ ذَكَّرَهُمْ وَخَوَّفَهُمْ بِهِ فِيْ آيِ الْقُرْآنِ، وَأَوْعَدَهُمْ عَلَى أَكْلِهِمُ الرِّبَا مِنَ الْعِقَابِ، يَقُوْلُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ عَنْ أَكْلِ الرِّبَا وَارْتَدَعَ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ وَانْزَجَرَ عَنْهُ، ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ يَعْنِيْ مَا أَكَلَ وَأَخَذَ فَمَضَى قَبْلَ مَجِيءِ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّحْرِيْمِ مِنْ رَبِّهِ فِيْ ذَلِكَ، ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ يَعْنِيْ

(١) منهاج الصالحين ٢/ ٥١ ، وينظر: منهاج الصالحين، السيد علي الحسيني السيستاني ٢/ ٧٢.

(٢) شرائع الإسلام، المحقق الحلي ٢/ ٢٩٧.

وَأَمْرُ آكِلِهِ بَعْدَ مَجِيْئِهِ الْمَوْعِظَةَ مِنْ رَبِّهِ وَالتَّحْرِيْمَ، وَبَعْدَ انْتِهَاءِ آكِلِهِ عَنْ أَكْلِهِ، إِلَى اللهِ فِيْ عِصْمَتِهِ وَتَوْفِيْقِهِ))[1].

إنَّ ما تقدم من تفسير هو المعنى الظاهر للآية المباركة، والذي تؤيده روايات متعددة، ولم يذكر الطبري أقوالًا مختلفة في ذلك، فالأغلب هو على ما تقدم من قول.

٢- قال الزمخشري (ت٥٣٧هـ/ ١١٤٣م): ((﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ فَمَنْ بَلَغَهُ وَعْظٌ مِنَ اللهِ وَزَجْرٌ بِالنَّهْيِ عَنِ الرِّبَا ﴿فَانْتَهَى﴾ فَتَبِعَ النَّهْيَ وَامْتَنَعَ ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فَلَا يُؤْخَذُ بِمَا مَضَى مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَخَذَ قَبْلَ نُزُوْلِ التَّحْرِيْمِ ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ يحْكَمُ فِيْ شَأْنِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ مِنْ أَمْرِهِ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ فَلَا تُطَالِبُوْهُ بِهِ))[2].

إنَّ هذا القول للزمخشري قائم على تفسير النص القرآني بما يظهر من ألفاظه الصريحة الظاهرة على عدم المؤاخذة على ما مضى من الربا قبل التوبة، وأنَّ الأمر في ذلك إلى الله يوم القيامة.

٢- قال الشيخ الطبرسي: ((﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مَعْنَاهُ فَمَنْ جَاءَهُ زَجْرٌ وَنَهْيٌ وَتَذْكِيْرٌ مِنْ رَبِّهِ، ﴿فَانْتَهَى﴾ أَيْ فَانْزَجَرَ وَتَذَكَّرَ وَاعْتَبَرَ، ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ معْنَاهُ فَلَهُ مَا أَخَذَ وَأَكَلَ مِنَ الرِّبَا قَبْلَ النَّهْيِ لَا يَلْزَمُهُ رَدُّهُ، قَالَ الْبَاقِرُ عليه السلام: ((مَنْ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَتَابَ مِمَّا كَانَ عَمَلَهُ فِيْ الْجَاهِلِيَّةِ وَضَعَ اللهُ عَنْهُ مَا سَلَفَ))، وَقَالَ السُّدِيُّ مَعْنَاهُ لَهُ مَا أَكَلَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ رَدُّ مَا سَلَفَ، فَأَمَّا مَا لَمْ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٦/ ١٤.

(٢) تفسير الكشاف ١/ ٣٤٨.

يُقْبَضْ بَعْدُ فَلَا يَجُوْزُ لَهُ أَخْذُهُ وَلَهُ رَأْسُ الْمَالِ .... ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى الله﴾ مَعْنَاهُ وَأَمْرُهُ بَعْدَ مَجِيءِ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّحْرِيْمِ وَالْانْتِهَاءِ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَصَمَهُ عَنْ أَكْلِهِ وَثَبَّتَهُ فِيْ انْتِهَائِهِ عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ خَذَلَهُ. وَقِيْلَ: مَعْنَاهُ وَأَمْرُهُ فِيْ حُكْمِ الْآخِرَةِ إِلَى الله تَعَالَى إِنْ لَمْ يَتُبْ وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحِلٍّ لَهُ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ بِعَدْلِهِ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ بِفَضْلِهِ. وَقِيْلَ: مَعْنَاهُ أَمْرُهُ إِلَى الله فَلَا يُؤَاخِذُهُ بِمَا سَلَفَ مِنَ الرِّبَا))[1].

إنَّ جميع الأقوال التي ذكرها الشيخ الطبرسي إنما تؤكد ما ورد في رواية الإمام الجواد عليه السلام في أنَّ التوبة والانتهاء عن المعاملة بالربا لا يوجب على صاحبه أنْ يردَّ ما أخذه قبل ذلك، من دون الإشارة أو البيان إلى تفصيل ذلك من حيث العلم والجهل وغيرهما كما سيأتي بيانه عند العلماء الآخرين.

٣- قال السيد الطباطبائي: ((﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله﴾ تَفْرِيْعٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾ إلخ، وَالْكَلَامُ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِالرِّبَا، فَهُوَ حُكْمٌ كُلِّيٌّ وُضِعَ فِيْ مَوْرِدٍ جُزْئِيٍّ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِهِ مِصْدَاقًا مِنْ مَصَادِيقِهِ يَلْحَقُهُ حُكْمُهُ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ لَكُمْ فِيْ أَمْرِ الرِّبَا مَوْعِظَةٌ جَاءَتْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ إلخ فَإِنِ انْتَهَيْتُمْ فَلَكُمْ مَا سَلَفَ وَأَمْرُكُمْ إِلَى الله. وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ مَجِيءِ الْمَوْعِظَةِ بُلُوْغُ الْحُكْمِ الَّذِيْ شَرَّعَهُ اللهُ تَعَالَى، وَمِنَ الانْتِهَاءِ التَّوْبَةُ وَتَرْكُ الْفِعْلِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ انْتِهَاءً عَنْ نَهْيِهِ تَعَالَى، وَمِنْ كَوْنِ مَا سَلَفَ لَهُمْ عَدَمَ انْعِطَافِ الْحُكْمِ وَشُمُوْلِهِ لِمَا قَبْلَ زَمَانِ بُلُوْغِهِ، وَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله﴾ إِنَّهُ لَا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الْخَالِدُ الَّذِيْ يَدُلُّ عَلَيْهِ

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ١/ ٤٦٧.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ فَهُمْ مُنْتَفِعُوْنَ فِيْمَا أَسْلَفُوْا بِالتَّخَلُّصِ مِنَ هَذِهِ الْمُهْلَكَةِ، وَيَبْقَى عَلَيْهِمْ: أَنَّ أَمْرَهُمْ إِلَى الله فَرُبَّمَا أَطْلَقَهُمْ فِيْ بَعْضِ الْأَحْكَامِ، وَرُبَّمَا وَضَعَ عَلَيْهِمْ مَا يَتَدَارَكُ بِهِ مَا فَوَّتُوْهُ))[1].

من خلال ما تقدم من أقوال المفسرين يظهر مدى موافقة ذلك مع قول الإمام الجواد عليه السلام في بيان الموعظة التي يستمع إليها الإنسان بعد ٱرتكابها لتلك المعصية من غير علم بها أو بحرمتها، ولكن الرواية قد ذكرت إجمالاً ما تعلَّق من أموال قبل الموعظة والتوبة بالقول: ((فَمَا مَضَى فَحَلَالٌ))، أما بعض المفسرين فقد ذكروا ما يتعلق بذلك على أقوال مختلفة في بعض الموارد من حيث العفو عنه مطلقًا، أو في الدنيا فقط وأما في الآخرة فأمره إلى الله، ولكن السيد الطباطبائي قدس سره توسَّع في مفهوم الآية عن شمولها للربا خاصة، بل يمكن أنْ ينطبق على الكبائر الأخرى، وإنما ٱقتضى السياق في الآية أنْ يخصص الربا، فضلًا عن أنَّ هذه المعاصي وإنْ كان فيها عفو من الله تعالى لمرتكبها ولكن قد تترتب عليها مسائل أخرى يجب عليه أنْ يتداركها، فقال في بيان ذلك: ((وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمْرَ الْآيَةِ عَجِيْبٌ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ مَعَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ التَّسْهِيلِ وَالتَّشْدِيْدِ حُكْمٌ غَيْرُ خَاصٍّ بِالرِّبَا، بَلْ عَامٌّ يَشْمِلُ جَمِيْعَ الْكَبَائِرِ الْمُوْبِقَةِ، وَالْقَوْمُ قَدْ قَصَّرُوْا فِيْ الْبَحْثِ عَنْ مَعْنَاهَا؛ حَيْثُ ٱقْتَصَرُوْا بِالْبَحْثِ عَنْ مَوْرِدِ الرِّبَا خَاصَّةً مِنْ حَيْثُ الْعَفْوُ عَمَّا سَلَفَ مِنْهُ، وَرُجُوْعُ الْأَمْرِ إِلَى الله فِيْ مَنِ ٱنْتَهَى، وَخُلُوْدُ الْعَذَابِ لِمَنْ عَادَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَجِيءِ الْمَوْعِظَةِ، هَذَا كُلُّهُ مَعَ مَا تَرَاهُ مِنَ الْعُمُوْمِ فِيْ الْآيَةِ .... فَالْمَعْنَى أَنَّ مَنِ ٱنْتَهَى عَنْ مَوْعِظَةٍ جَاءَتْهُ

(١) الميزان في تفسير القرآن ٢/ ٤١٧.

فَالَّذِيْ تَقَدَّمَ مِنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ سَوَاءٌ كَانَ فِيْ حُقُوْقِ الله أَوْ فِيْ حُقُوْقِ النَّاسِ فَإِنَّهُ لَا يُؤَاخَذُ بِعَيْنِهَا، لَكِنَّهُ لَا يُوْجِبُ تَخَلُّصَهُ مِنْ تَبِعَاتِهِ أَيْضًا كَمَا تَخَلَّصَ مِنْ أَصْلِهِ مِنْ حَيْثُ صُدُوْرُهُ، بَلْ أَمْرُهُ فِيْهِ إِلَى الله، إِنْ شَاءَ وَضَعَ فِيْهَا تَبِعَةً كَقَضَاءِ الصَّلَاةِ الْفَائِتَةِ وَالصَّوْمِ الْمَنْقُوْضِ))[1].

هذا ما حاولت بيانه لأقوال المفسرين في الآية المباركة، وقد وردت روايات متعددة تدل على تحريم الربا وعظمة ارتكابه وتحذير المؤمنين من التعامل به قليله وكثيره ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: ((دِرْهَمُ رِبَا أَشَدُّ مِنْ سَبْعِيْنَ زِنْيَةٍ كُلِّهَا بِذَاتِ مَحْرَمٍ))[2]، فضلًا عن بيان آثاره في الدنيا والآخرة، فهو شر المكاسب، وأخبثها، وملعون صاحبه، ومن الكبائر وغيرها[3].

- **الثالث: آيات الأحكام.**

قد تبيَّن من خلال ما تقدم من أقوال المفسرين من موافقتهم للرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام من جوانب متعددة، وقد أفاد العلماء من آية الربا أحكام متعددة، فضلًا عن مناقشتها وبمكن بيان بعض ما يتعلق بالموضوع ببيان بعض أقوالهم في الإفادة منها كون الآية المباركة تعدُّ من آيات الأحكام.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١/ ٤٢٦.

(٢) وسائل الشيعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ١٨/ ١١٧ وقد وردت روايات كثيرة في ذلك للتفصيل ينظر: ١٨/ ١١٧-١٣٢.

(٣) ينظر: ميزان الحكمة، محمد الريشهري ٤/ ١٣٩٠-١٣٩٥ باب (الربا).

١- قال الشيخ قطب الدين الراوندي (ت٥٧٣هـ/ ١١٧٧م): ((أي لَهُ ما أكلَ، وليسَ عليهِ رَدُّ ما سلفَ إذا لم يكنْ علمَ أنَّه حرامٌ، قال أبو جعفر عليه السلام: مَنْ أدركَ الإسلامَ وتابَ مما كانَ عملهُ في الجاهليةِ وضعَ اللهُ عنه ما سلفَ، فمن ٱرتكبَ ربًا بجهالةٍ ولم يعلمْ أنَّ ذلكَ محظورٌ فليستغفرِ اللهَ في المستقبلِ، وليسَ عليهِ فيما مضى شيءٌ، ومتى علمَ أنَّ ذلكَ محرَّمٌ وتمكَّنَ من عملهِ فكُلُّ ما يحصلُ لَهُ من ذلكَ محرَّمٌ عليهِ، ويجبُ عليهِ ردُّهُ إلى صاحبهِ.... ويحتملُ أنْ يكونَ أرادَ ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ يعني من الربا المأخوذِ دونَ العقابِ الذي ٱستحقَّهُ .... لأنَّ مستحلَّ الربا كافرٌ بالإجماعِ))[1].

إنَّ هذا القول مطابق لما ورد في الرواية التفسيرية ولما ذكره المفسرون حول في الآية المباركة، فالجاهل بأنَّ ما أخذه كان من الربا لا إثم عليه فيما تقدم؛ لانتفاء العلم بالموضوع، وأما مع العلم فهذا لا يتم، وهو ما كان التحذير والوعيد به.

٢- قال المقداد السيوري (ت٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م): ((لا ريبَ في أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ وقولَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا ٱتَّقُوْا اللهَ وَذَرُوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ صريحتانِ في أنَّه لا يجبُ رَدُّ الربا السابقِ على نزولِ التحريمِ، ونحنُ قد قررنا أنَّهُ يجبُ رَدُّ الربا مع العلمِ والجهلِ، فما وجهُ الجمعِ بينَ الكلامينِ؟ فنقول: وجهُ الجمعِ أنَّهُ لا يجبُ على الكافرِ رَدُّ ما أخذَهُ حالَ كفرِهِ إلا أنْ يكونَ عينُهُ موجودةً، فإذا أسلمَ حُرِّمَ عليهِ أخذُ ما بقيَ له عندَ

(١) فقه القرآن ص٤٧.

معامليهِ، وأمَّا المسلمُ فيحبُ عليهِ رَدُّ الربا مطلقًا، سواءٌ علمَ بالتحريمِ أو لم يعلَمْ على الأصحِّ؛ لأنَّ الموعظةَ جاءَتْ إليهِ، وعدمُ علمِهِ ليسَ عذرًا لتمكُّنِهِ من العلمِ))[1].

إنَّ هذا القول للمقداد رحمه الله في وجوب الرد مطلقًا بالنسبة للمسلم يخالف ظاهرًا ما عليه النص القرآني والروايات الشريفة التي أكدت عدم الرد، وإنَّ الإسلام لا يوجب ذلك في مقابل الكفر الذي يمنعه، فالذين سألوا الأئمة عليهم السلام عن الآية كانوا من المسلمين ولم يذكروا في جوابهم وجوب الرد قبل التوبة هذا من جانب، والظاهر أنَّه متأثِّرٌ ويذهب إلى ما يراه بعض الأعلام ممن قبله، كالعلامة الحلي وغيره كما سيأتي، ومن جانب آخر فقوله (وعدم علمه ليس عذرًا لتمكنه من العلم) فهو إطلاق لا يمكن الأخذ به، فليس كُلُّ إنسان يمكنه التعلم مطلقًا.

وقد ناقش الشيخ المقداد ذلك ولكنه أكَّد ما يذهب إليه في احتمال الرد من خلال التأمل في الآية المباركة فقال: ((قيلَ في قولِهِ: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ دلالةٌ على أنَّه لا تجبُ إعادةُ الربا مع الجهلِ بتحريمِهِ، بل يكفي مع ورودِ العلمِ الانتهاءُ، وهو التوبةُ لا غيرَ، وفيهِ نظرٌ لجوازِ أنْ يكونَ المرادُ بهِ سقوطَ الإثمِ بالتوبةِ، لا سقوطَ حَقِّ الغيرِ؛ لأنَّهُ لا يسقطُهُ إلا أداؤُهُ))[2].

٣- قال الشيخ فاضل الجواد الكاظمي: ((وعلى هذا ففيها دلالةٌ ظاهرةٌ على أنَّ العفوَ من اللهِ موجودٌ .... وجميعُ ما ذكرَ من الوجوهِ دالٌّ على ملكيةِ ما سلفَ

(١) كنز العرفان في فقه القرآن ص٤٠٣.

(٢) المصدر نفسه ص٤٠٠.

قبلَ النهيِ، وليسَ كونُهُ لَهُ مشروطًا بالانتهاءِ، بل عدمُ العقابِ فيما يأتي مشروطٌ بهِ، فلا يردُ أنَّ مفهومَ الشرطِ ٱقتضى أنَّهُ إذا لم ينتهِ لم يكَنْ لَهُ، فيجبُ رَدُّهُ على مالكِهِ خصوصًا مع بقاءِ العينِ؛ لأنَّ هذا المفهومَ غيرُ معتبرٍ إجماعًا، ويمكنُ توجيهُ المفهومِ بأنَّ المرادَ أنَّ ما لَهُ ما سلفَ من غيرِ عقابٍ إذا ٱتعظَ وٱنتهى، فلو لَمْ ينتهِ لَمْيكُنْ لَهُ ما سلفَ سالمًا، بل هُوَ مع العقابِ فكأنَّهُ ليسَ لَهُ، إذ لا خيرَ فيهِ مع ثبوتِ العقابِ .... هذا كُلُّهُ إذا فعلَهُ متعمدًا، ولو فعلَهُ جاهلًا بتحريمهِ فقدِ ٱختلفَ أصحابُنَا في وجوبِ رَدِّهِ على مالكهِ، فقالَ الشيخُ في النهايةِ لا يجبُ رَدُّهُ، وهو الظاهرُ من ٱبنِ بابويهِ في المقنعِ، ورواهُ في مَنْ لا يحضرُهُ الفقيهُ، وعلى ذلكِ جماعةٌ، والأكثرُ على وجوبِ رَدِّهِ وإليهِ ذهبَ ٱبنُ إدريس، وقَوَّاهُ العلامَةُ في المختلفِ))[1].

إنَّ قول الأكثر على وجوب رده على الرغم من التوبة رأي يقع في مقابل ظاهر الآية والروايات الشريفة، وأقوال المفسرين الذين تقدمت أقوالهم.

وإنَّ الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام قد بيَّنت ذلك وأكدته، وهناك روايات متعددة أشارت إلى ذلك، فضلًا عن ظاهر الآية المباركة.

(١) مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام ج٣ ص٤٢-٤٣.

- **الآية الثالثة:**

قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الْخَبِيْرُ﴾[١].

* روى أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري [٢]، قال: ((قُلْتُ لِأَبِيْ جَعْفَرٍ الثَّانِيْ [الإمام محمد الجواد] عليه السلام: قَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. قَالَ عليه السلام: يَا أَبَا هَاشِمٍ! أَوْهَامُ الْقُلُوْبِ أَدَقُّ مِنْ أَبْصَارِ الْعُيُوْنِ، أَنْتَ قَدْ تُدْرِكُ بِوَهْمِكَ السِّنْدَ وَالْهِنْدَ، وَالْبُلْدَانَ الَّتِيْ لَمْ تَدْخُلْهَا، وَلَا تُدْرِكُ بِبَصَرِكَ ذَلِكَ، فَأَوْهَامُ الْقُلُوْبِ لَا تُدْرِكُهُ، فَكَيْفَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ؟))[٣].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبين مسألة مهمة من المسائل العقائدية التي ٱستعرضتها الشريعة الإسلامية المقدسة، وبينت ما يتعلق بها، فالآية المباركة في مقام بيان رؤية الله تعالى من قبل الإنسان، وهل يمكن ذلك في الدنيا، أو الآخرة، أو فيهما معًا، أو يمتنع ذلك مطلقًا، ولأجل أنْ نكون على بينة مما ورد في الرواية الشريفة وما تضمنته نحاول بيان موضوعات ثلاثة بإيجاز:

الأول: ما المراد بالإدراك.

الثاني: أقوال المفسرين.

الثالث: مناقشة الروايات في الرؤيا.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري من أهل بغداد، جليل القدر، ثقة، عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، وقد شاهد جماعة منهم الرضا والجواد والهادي والعسكري وصاحب الأمر عليهم السلام. ينظر: معجم رجال الحديث ٨/ ١٢٢-١٢٤.

(٣) الكافي ١/ ٩٩ باب (في إبطال الرؤية) الحديث ١١.

- **الأول: ما المراد بالإدراك.**

ورد أنَّ المراد بالإدراك معانٍ متعددة، وإنْ كان الأصل في اللغة واحد وهو الوصول والبلوغ، وإنَّ هذا الاختلاف له أثر في تفسير المراد من الآية المباركة، وهذا ما سنراه في أقوال المفسرين، فالإدراك قيل يراد به البصر، أو البصيرة، أو الإحاطة وغيرها من المعاني.

* قال ابن فارس: ((الدَّالُ وَالرَّاءُ وَالْكَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ لُحُوْقُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ وَوُصُوْلُهُ إِلَيْهِ. يُقَالُ: أَدْرَكْتُ الشَّيْءَ أُدْرِكُهُ إِدْرَاكًا .... وَيُقَالُ: أَدْرَكَ الْغُلَامُ وَالْجَارِيَةُ إِذَا بَلَغَا. وَتَدَارَكَ الْقَوْمُ لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ))[1].

* قال الراغب الأصفهاني: ((وَأَدْرَكَ بَلَغَ أَقْصَى الشَّيْءَ، وَأَدْرَكَ الصَّبِيُّ بَلَغَ غَايَةَ الصِّبَا وَذَلِكَ حِيْنَ الْبُلُوْغِ، قَالَ [تَعَالَى]: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾[2]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى الْبَصَرِ الَّذِيْ هُوَ الْجَارِحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْبَصِيْرَةِ، وَذَكَرَ [تعالى] أَنَّهُ قَدْ نَبَّهَ، وَالتَّدَارُكُ فِيْ الْإِغَاثَةِ وَالنِّعْمَةِ أَكْثَرُ، نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[3]، وَقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوْا فِيْهَا جَمِيْعًا﴾[4] أَيْ لَحِقَ كُلٌّ بِالْآخَرِ))[5].

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (درك).

(٢) سورة يونس: الآية ٩٠.

(٣) سورة القلم: الآية ٤٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٣٨.

(٥) المفردات في غريب القرآن ص٣١١-٣١٢ (درك).

إنَّ الراغب قد وسَّع المعنى اللغوي للإدراك الذي تقدم في كلمات اللغويين، وذكر المعاني التي يمكن أنْ ينصرف إليه ذلك المعنى، وأنَّ الرؤية بالبصر والبصيرة مما فسَّره المفسِّرون، ولكنَّ الله تعالى قد نبَّه بالنفي لها، فضلًا عن المعاني الأخرى التي ٱستعملها القرآن الكريم في مواردها الخاصة.

* قال الشيخ الطريحي: ((قَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَيْ لَا تَرَاهُ الْعُيُوْنُ؛ لِأَنَّ الْإِدْرَاكَ مَتَى قُرِنَ بِالْبَصَرِ لَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ إِلَّا الرُّؤْيَةَ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا قُرِنَ بِآلَةِ السَّمْعِ فَقِيْلَ: أَدْرَكْتُهُ بِأُذُنِيْ لَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ إِلَّا السُّمَاعَ، وَكَذَا إِذَا أُضِيْفَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَوَاسِ أَفَادَ مَا بِتِلْكَ الْحَاسَّةِ آلَتَهُ، مِثْلَ أَدْرَكْتُهُ بِفَمِيْ أَيْ وَجَدْتُ طَعْمَهُ، وَأَدْرَكْتُهُ بِأَنْفِيْ أَيْ وَجَدْتُ رَائِحَتَهُ، وَالْمُعْنَى لَا تُدْرِكُهُ ذُوْ الْأَبْصَارِ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ أَيْ الْمُبْصِرِيْنَ، وَيُقَالُ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ أَيْ الْأَوْهَامُ))[1].

إنَّ الشيخ الطريحي أراد بيان أهمية القرينة في فهم المراد من الألفاظ التي لها معانٍ مشتركة، وقد أكَّد على إمكانية ٱنصراف معنى الإدراك إلى معانٍ متعددة إنما تُفهم من خلال القرينة، والإدراك من هذه المعاني، ووجود لفظ (البصر) دلالة على أنَّ المراد هي الرؤية البصرية من دون غيرها من المعاني، كما ورد في الأمثلة المتعددة.

على أساس ما تقدم وغيره من كلمات العلماء يمكن القول بأنَّ الإدراك إنْ أُريد به الرؤية المادية (البصر)، أو الرؤية المعنوية (البصيرة) فيما يتعلق بالله تعالى فهذا الوصول لا يتحقق مطلقًا؛ لأنَّ الأول ممتنع عنه سبحانه كما سيأتي، والثاني لا يمكن للمحدود (الإنسان) أنْ يصل إلى إدراك المطلق (الله)، فالآية تنفيهما معًا.

---

(١) مجمع البحرين ٣/ ٢٢٣ (بصر).

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

إنَّ المفسرين قد ذكروا فيما يتعلق بالآية المباركة أقوال متعددة، نذكر منها:

١- قال الطبري: ((ٱخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيْلِ فَقَالَ بَعْضَهُمْ، مَعْنَاهُ لَا تُحِيْطُ بِهِ الْأَبْصَارُ، وَهُوَ يُحِيْطُ بِهَا، حَدَّثَنِيْ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ قَالَ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، يَقُوْلُ: لَا يُحِيْطُ بَصَرُ أَحَدٍ بِالْمَلِكِ. حَدَّثَنَا بِشْرُ قَالَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ. وَٱعْتَلَّ قَائِلُوْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ لِقَوْلِهِمْ هَذَا، بِأَنْ قَالُوْا: إِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ﴾ قَالُوْا: فَوَصَفَ اللهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ الْغَرَقَ بِأَنَّهُ أَدْرَكَ فِرْعَوْنَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْغَرَقَ غَيْرُ مَوْصُوْفٍ بِأَنَّهُ رَآهُ، وَلَا هُوَ مِمَّا يَجُوْزُ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ يَرَى شَيْئًا، قَالُوْا: فَمَعْنَى قَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بِمَعْنَى: لَا تَرَاهُ))[1].

إنَّ هذا الحديث وغيره أحد أقوال الصحابة في بيان المراد من الإدراك هو (الرؤيا) في الآية المباركة خاصة، ولكن الطبري لم يوافق هذا الرأي وقال بأنه (بعيد)، وٱستشهد بآيات أخرى تخالف ذلك، ثم ٱنتقل بعد ذلك لبيان الرأي الثاني القائل أنَّ المراد بالإدراك هو الإحاطة مع إمكانية رؤية الله تعالى بالبصر من دون الإحاطة به، فمعنى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي لا تحيط به، وهذا أيضًا لم يقبل به ٱستنادًا لروايات وردت في إمكانية رؤيته، وذكر آراء أخرى مع بيان أدلتها، ثم ذكر الرأي الذي يذهب هو إليه ويؤيده، حيث قال: ((وَالصَّوَابُ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٢/ ١٣-١٤.

مِنَ الْقَوْلِ فِيْ ذَلِكَ عِنْدَنَا، مَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُوْلِ الله "صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ لَيْسَ دُوْنَهَا سَحَابٌ))، فَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَهُ،وَالكَافِرُونَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ مَحْجُوبُونَ، كَمَا قَالَ جِلَّ ثَنَاؤُهُ:﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوْبُوْنَ﴾[1]))[2].

٢- قال الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م): ((فِيْ هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ؛ لِأَنَّهُ تَمَدَّحَ بِنَفْيِ الْإِدْرَاكِ عَنْ نَفْسِهِ، وَكُلَّمَا كَانَ نَفْيُهُ مَدْحًا غَيْرَ مُتَفَضِّلٍ بِهِ فَإِثْبَاتُهُ لَا يَكُوْنُ إِلَّا نَقْصًا، وَالنَّقْصُ لَا يَلِيْقُ بِهِ تَعَالَى، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَجُوْزُ إِدْرَاكُهُ، وَلَا رُؤْيَتُهُ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ أَشْيَاءٍ أَحَدَهَا: إِنَّهُ تَعَالَى تَمَدَّحَ بِالآيَةِ. وَالثَّانِي: إِنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الرُّؤْيَةُ. وَالثَّالِثُ: إِنَّ كُلَّمَا كَانَ نَفْيُهُ مَدْحًا لَا يَكُونُ إِثْبَاتُهُ إِلَّا نَقْصًا.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى تَمَدُّحِهِ شَيْئَانِ: أَحَدُهُمَا: إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ، فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي أَنَّهُ تَعَالَى تَمَدَّحَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقُولُنَا: تَمَدَّحَ بِنَفْيِ الْإِدْرَاكِ عَنْ نَفْسِهِ لِاسْتِحَالَتِهِ عَلَيْهِ. وَقَالَ الْمُخَالِفُ: تَمَدَّحَ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَنْعِ الْأَبْصَارِ مِنْ رُؤْيَتِهِ، فَالإِجْمَاعُ حَاصِلٌ عَلَى أَنَّ فِيْهَا مِدْحَةً. وَالثَّانِي: إِنَّ جَمِيْعَ الْأَوْصَافِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ وَبَعْدَهَا مِدْحَةٌ، فَلَا يَجُوْزُ أَنْ يَتَخَلَّلَ ذَلِكَ مَا لَيْسَ بِمِدْحَةٍ))[3].

---

(١) سورة المطففين: الآية ١٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٢/ ٢٠.

(٣) التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٢٢٣.

إنَّ هذا القول من الشيخ الطوسي قدس سره في إثبات نفي الرؤية عن الله تعالى قائم على أمرين مهمين، الأول: له علاقة بالعقيدة الإسلامية في نفي صفات السلب عنه تعالى، والرؤيا كما هو مورده من صفات السلب، سواء أكانت في الدنيا أم الآخرة فإنها تدل على حَدِّهِ تعالى وتجسيمه، وهذا مما لا يليق بالخالق عز وجل، والآخر: له علاقة بالبحث القرآني في معرفة المراد من النص ضمن السياق العام، من دون القطع بينه، فالسياق العام للآية المباركة في تأكيد تنزيهه تعالى عمَّا يؤمن به المشركون، حيث الإيمان بالمادة وحدودها وقيوده، فكان نفي الرؤية هي إحدى الصفات التي تخللت ذلك النص، فنفى الشريك، والصاحبة، والولد وغيرها، وإثبات القدرة الإلهية المطلقة، وإبداعه في الخلق، وآياته المختلفة التي تدل على عظمته وغير ذلك، لذا قال: ((إِنَّ جَمِيْعَ الْأَوْصَافِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ وَبَعْدَهَا مِدْحَةٌ))، وهذا ما سنراه جليًّا في كلام السيد الطباطبائي قدس سره.

٣- قال الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ/ ١١٥٣م): ((فِيْ هَذِهِ الْآيَةِ مَسَائِلُ: الْمَسْأَلَةُ الْأُوْلَى: ٱحْتَجَّ أَصْحَابُنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى تَجُوْزُ رُؤْيَتَهُ، وَالْمُؤْمِنُوْنَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ وُجُوْهٍ، الْأَوَّلُ: فِيْ تَقْرِيْرِ هَذَا الْمَطْلُوْبِ أَنْ نُقُوْلَ: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى تَجُوْزُ رُؤْيَتَهُ. وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ الْقَطْعُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أَمَّا المَقَامُ الأَوَّلُ: فَتَقْرِيرُهُ: أَنَّهُ تَعَالَى تَمَدَّحَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وَذَلِكَ مِمَّا يُسَاعِدُ الخَصْمَ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ بَنَوْا ٱسْتِدْلَالَهُمْ فِي إِثْبَاتِ مَذْهَبِهِمْ فِيْ نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُوْلُ: لَوْ لَمْ يَكُنْ تَعَالى جَائِزُ الرُّؤْيَةِ لَمَا حَصَلَ التَّمَدُّحُ

بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَعْدُوْمَ لَا تَصِحُّ رُؤْيَتَهُ، وَالْعُلُوْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالرَّوَائِحُ وَالطُّعُوْمُ لَا يَصُحُّ رُؤْيَةَ شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا مَدْحَ لِشَيْءٍ مِنْهَا فِيْ كَوْنِهَا بِحَيْثُ لَا تَصِحُّ رُؤْيَتَهَا))[1].

إنَّ هذا الاستدلال العقلي من الفخر الرازي -على عمقه- لا يخلو من ضعف أو إشكال، فإنْ كان المدح دلالة على الوجود كما في الإدراك وإمكانية رؤيته تعالى، وأنَّ مدح المعدوم لا يصحُّ أو يعدُّ لغوًا، كما ذكر ذلك في (العلم والقدرة والإرادة والروائح والطعوم)، فنقول: ما رأيه في نفي الله تعالى صفات متعددة في السياق القرآني للآية المباركة مثل (نفي الشريك له تعالى، ونفي الصاحبة والولد له، وإثبات خلق كل شيء) فهل هذه الموضوعات وغيرها في الآيات السابقة لآية الإدراك لا تدل على المِدحة له تعالى؟!

فالآيات ظاهرة جلية في الدلالة على مدحه وتنزيهه عمَّا لا يليق به، فهل يعني ذلك أنَّ نفيه يدل على وقوعها لأنه بصدد المدح، والمدح لا يكون إلى في الواقع من دون المعدوم!!

فإنَّ هذه المذكورات لا يمكن أنْ تدركها القلوب والأوهام على قدرتها الكبيرة فضلًا عن العين بقدرتها البسيطة المحدودة!!

وهذا عين ما أشارت إليه الرواية التفسيرية للإمام محمد الجواد عليه السلام لو تأملنا فيها بدقة.

---

(١) التفسير الكبير ١٣/ ٩٧-٩٨.

فالآية من حيث هي ضمن السياق القرآني تدل على عدم إمكانية الرؤية، بل ٱستحالة ذلك، ويجب على المفسِّر المنصف المتجرِّد أنْ لا يقوم بمطاوعة النص على وفق ما يؤمن هو به مُسَبَّقًا، فالقرآن ذو رؤية واضحة دقيقة، فضلًا عن تواتره التام، بخلاف الروايات، ومنها الواردة في بيان رؤيته والمتضاربة فيما بينها كما سيأتي.

٤- قال السيد الطباطبائي: ((وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فَهُوَ لِدَفْعِ الدَّخْلِ الَّذِي يُوهِمُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بِحَسَبِ مَا تَتَلَقَّاهُ أَفْهَامُ الْمُشْرِكِيْنَ السَّاذِجَةُ وَالْخِطَابُ مَعَهُمْ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا صَارَ وَكِيْلًا عَلَيْهِمْ كَانَ أَمَرًا جِسْمَانِيًّا كَسَائِرِ الْجِسْمَانِيَّاتِ الَّتِيْ تَتَصَدَّى الْأَعْمَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ، فَدَفَعَهُ بِأَنَّهُ تَعَالَى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لِتَعَالِيْهِ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَلَوَازِمِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ دَفْعٌ لِمَا يَسْبِقُ إِلَى أَذْهَانِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِيْنَ الَّذِيْنَ ٱعْتَادُوْا بِالتَّفَكُّرِ الْمَادِّيِّ، وَأُخْلِدُوْا إِلَى الْحِسِّ وَالْمَحْسُوْسِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا ٱرْتَفَعَ عَنْ تَعَلُّقِ الْأَبْصَارِ بِهِ خَرَجَ عَنْ حِيْطَةِ الْحِسِّ وَالْمَحْسُوْسِ، وَبَطُلَ نَوْعُ الاتِّصَالِ الْوُجُوْدِيِّ الَّذِيْ هُوَ مَنَاطُ الشُّعُوْرِ وَالْعِلْمِ، وَٱنْقَطَعَ عَنْ مَخْلُوْقَاتِهِ فَلَا يَعْلَمُ بِشَيْءٍ، كَمَا لَا يَعْلَمُ بِهِ شَيْءٌ، وَلَا يَبْصُرُ شَيْئًا، كَمَا لَا يَبْصُرُهُ شَيْءٌ، فَأَجَابَ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ثُمَّ عَلَّلَ هَذِهِ الدَّعْوَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ اللَّطِيْفُ الْخَبِيْرُ﴾))[1].

إنَّ كلام السيد الطباطبائي قدس سره يدلُّ على مقامه ومنزلته العلمية في التعامل مع النص القرآني لبيان تفسيره وتأويله، وخصوصًا ما يتعلق بالآيات

(١) الميزان في تفسير القرآن ٧/ ٣٠١-٣٠٢.

العقائدية، أو الآيات المتضمنة المتشابهات، مثل هذه الآية الكريمة موضوع البحث، فالسيد أكَّد على أنَّ القرآن الكريم كان دقيقًا في بيان العقيدة، مع مراعاة ما كان المشركون أو الكفار يؤمنون به، أو يَدَّعونه، فلمَّا كانت علاقتهم بصورة عامة مع الآلهة التي يعبدونها قد صَوَّروا لها تجسيمات، وكان يعتقدون بوجودها وحضورها في الواقع بالتأثير على الإنسان وما يدور حوله، وقد ردَّ الله تعالى تلك العقائد الفاسدة في كثير من الآيات، والآية المباركة في سياق آيات متعددة تدل على عظمته ووحدانيته، وتنزيهه عمَّا لا يليق به، وقد أبدع السيد الطباطبائي بقوله ((وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا صَارَ وَكِيْلًا عَلَيْهُمْ كَانَ أَمَرًا جِسْمَانِيًّا كَسَائِرِ الْجِسْمَانِيَّاتِ الَّتِيْ تَتَصَدَّى الْأَعْمَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ، فَدَفَعَهُ بِأَنَّهُ تَعَالَى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لِتَعَالِيْهِ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَلَوَازِمِهَا))، وأظن أنَّ ما ذكره السيد الطباطبائي في بيان ما يتعلق بالآية يعد من أدق الكلام وأهمه، ويحتاج إلى دقة وتأمل في كلامه.

هذا ما حاولت بيانه بإيجاز حول الآية المباركة التي ذكر الإمام الجواد عليه السلام تفسيرها، وقد ناقش علماء الكلام ما يتعلق بذلك بتفصيل، وأثبتوا امتناع رؤيته سبحانه[1].

(١) ينظر: مناهج اليقين في أصول الدين، العلامة الحلي ص٢٠٩-٢١٢ ، حق اليقين في معرفة أصول الدين، السيد عبد الله شبر ١/ ٣٩-٤٠ ، الإلهيات، الشيخ حسن محمد مكي العاملي ٢/ ١٢٥-١٤٠.

- **الثالث: مناقشة الروايات الواردة في الرؤيا.**

لقد وردت روايات متعددة في كتب الفريقين تتعلق برؤية الله تعالى، فالروايات الواردة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام كثيرة تؤكِّد امتناع ذلك، فضلاً عن روايات العامة التي أوردوها في إمكانية رؤيته يوم القيامة، ونحاول بإيجاز بيان بعض تلك الروايات إتمامًا للبحث.

* عن عاصم بن حميد، عَنْ أَبِيْ عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: ((ذَاكَرْتَ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام فِيمَا يَرْوُوْنَ مِنَ الرُّؤْيَةِ فَقَالَ: الشَّمْسُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِيْنَ جُزْءً مِنْ نُوْرِ الْكُرْسِيِّ، وَالْكُرْسِيُّ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِيْنَ جُزْءً مِنْ نُوْرِ الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءً مِنْ نُوْرِ الْحِجَابِ، وَالْحِجَابُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءً مِنْ نُوْرِ السِّتْرِ، فَإِنْ كَانُوْا صَادِقِيْنَ فَلِيَمْلَؤُوْا أَعْيُنَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ لَيْسَ دُوْنَهَا سَحَابٌ))[1].

* عن أحمد بن إسحاق، قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِيْ الْحَسَنِ الثَّالِثِ [الإمام الهادي] عليه السلام أَسْأَلُهُ عَنِ الرُّؤْيَةِ وَمَا فِيْهِ النَّاسُ فَكَتَبَ عليه السلام: ((لَا يَجُوْزُ الرُّؤْيَةُ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الرَّائِيْ وَالْمَرْئِيِّ هَوَاءٌ يَنْفُذُهُ الْبَصَرُ، فَإِذَا انْقَطَعَ الْهَوَاءُ وَعَدَمُ الضِّيَاءِ بَيْنَ الرَّائِيْ وَالْمَرْئِيِّ لَمْ تَصُحْ الرُّؤْيَةُ وَكَانَ فِيْ ذَلِكَ الاشْتِبَاهُ؛ لِأَنَّ الرَّائِيَّ مَتَى سَاوَى الْمَرْئِيَّ فِيْ السَّبَبِ الْمُوْجِبِ بَيْنَهُمَا فِيْ الرُّؤْيَةِ وَجَبَ الاشْتِبَاهُ وَكَانَ فِيْ ذَلِكَ التَّشْبِيْهُ؛ لِأَنَّ الْأَسْبَابَ لَا بُدَّ مِنِ اتِّصَالِهَا بِالْمُسَبَّبَاتِ))[2].

---

(١) الكافي ١/ ٧٨ باب (في إبطال الرؤية) الحديث ٧.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق ص٦٥.

فالروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في نفي الرؤيا، وأنَّ الإدراك في الآية ينفي رؤيته تعالى، ومما ورد عن الشيخ محمد صالح المازندراني (١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م) في شرحه لأحاديث الرؤيا: ((إِنَّ ٱعْتِبَارَ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَهُمَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ الْمَذْكُوْرَ؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ لَهُ، وَالسَّبَبُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ مُتَّصِلًا بِالْمُسَبَّبِ، غَيْرَ مُنْفَكٍّ عَنْهُ، وَأَنْ يَكُوْنَ تَعْلِيلًا لِجَمِيْعِ مَا ذُكِرَ فِيْ هَذَا الدَّلِيْلِ، تَوْضِيْحُهُ أَنَّ الْهَوَاءَ الْمُتَوَسِّطَ سَبَبٌ لِلرُّؤْيَةِ، وَلِكَوْنِ هَذَا رَائِيًا مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ رَاءٍ وَذَاكَ مَرْئِيٌّ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ مَرْئِيٌّ، فَوَجَبَ ٱتِّصَالُهُ بِهِمَا وَٱتِّصَالُهُ بِهِمَا سَبَبٌ لِكَوْنِ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاقِعًا فِيْ حَيِّزٍ، وَفِيْ طَرَفٍ مِنْهُ، وَمَوْصُوْفًا بِالْجِسْمِيَّةِ وَلَوَاحِقِهَا فَوَجَبَ ٱتِّصَالُ هَذَا الاتِّصَالِ بِكَوْنِهِمَا عَلَى هَذِهِ الْأَوْصَافِ، وَكَوْنُهُمَا عَلَى هَذِهِ الْأَوْصَافِ سَبَبٌ لِوُقُوْعِ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَهُمَا، فَوَجَبَ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ، وَتِلْكَ الْمُشَابَهَةُ سَبَبٌ لِلتَّشْبِيهِ))[1].

ومما ورد من روايات العامة في أنَّ الله يُرى يوم القيامة:

- عن صهيب عن النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم) قال: ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُوْلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيْدُوْنَ شَيْئًا أَزِيْدُكُمْ؟ فَيَقُوْلُوْنَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوْهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطَوْا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ))[2].

- عن عطاء بن يزيد الليثي أنَّ أبا هريرة أخبره أنَّ ناسًا قالوا لرسولِ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): ((يَا رَسُوْلَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُوْلُ

(١) شرح أصول الكافي٣/ ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) الجامع الصحيح، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ١/ ١١٢.

الله "صَلَّى اللهَ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلِّمْ" هَلْ تُضَارُّوْنَ فِيْ رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوْا: لَا يَا رَسُوْلَ الله .... فَيَأْتِيْهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيْ صُوْرَةٍ غَيْرِ صُوْرَتِهِ الَّتِيْ يَعْرِفُوْنَ، فَيَقُوْلُ:أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُوْلُوْنَ: نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرِفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَى فِيْ صُوْرَتِهِ الَّتِيْ يَعْرِفُوْنَ، فَيَقُوْلُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُوْلُوْنَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَتْبَعُوْنَهُ وَيَضْرِبُ الصِّرَاطَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُوْنُ أَنَا وَأُمَّتِيْ أَوَّلَ مَنْ يُجِيْزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ....))[1]. وغير ذلك من الروايات التي تدل على تجسيم الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وقال أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٩م) تعقيبًا على عقيدة رؤيته سبحانه عند العامة: ((ونَدِينُ بأنَّ اللهَ يُرى في الآخرةِ بالأبصارِ كما يُرَى القَمَرُ لَيْلَةَ البَدْرِ، يَراهُ المؤمنونَ كما جاءَتْ الرواياتُ عن رسولِ الله "صلى الله عليه [وآله] وسلم"))[2]. فضلًا عمَّا تقدم من كلام الفخر الرازي وغيره.

هذا ما حاولت بيانه لأقوال المفسرين والعلماء في الآية المباركة، وآراء علماء المسلمين في مسألة عقائدية مهمة (رؤية الله) لها علاقة بأصل العقيدة وهو التوحيد، وعظمة الموضوعات المتعلقة بها، وتأكيد القرآن الكريم عليها بالنفي والتنزيه لله تعالى، كما ورد ذلك في الرواية التفسيرية الشريفة، وهذا يؤكِّد وحدة منهج الثقلين في بيان أحكام الشريعة المقدسة أصولًا وفروعًا.

(١) الجامع الصحيح ١/ ١١٣.

(٢) الإبانة عن أصول الديانة، علي بن إسماعيل ص٢٦.

- **الآية الرابعة:**

قال تعالى:﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

* روى الحسن بن شعبة الحراني رحمه الله عن الإمام الجواد عليه السلام: ((تَأْخِيْرُ التَّوْبَةِ اَغْتِرَارٌ، وَطُوْلُ التَّسْوِيْفِ حَيْرَةٌ، وَالاعْتِلَالُ عَلَى اللهِ هَلَكَةٌ، وَالإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ أَمْنٌ لِمَكْرِ اللهِ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾))(٢).

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبيِّن مسألة مهمة من المسائل التربوية التي اَستعرضتها الشريعة الإسلامية المقدسة، وبينت ما يتعلق بها، فالآية المباركة في مقام بيان أهمية التوبة ومحاسبة النفس، وعدم الاغترار بالدنيا، من خلال اَرتكاب المعاصي وتأخير التوبة، ولأجل أنْ نكون على بينة مما ورد في الرواية الشريفة وما تضمنته نحاول بيان موضوعات ثلاثة بإيجاز:

الأول: ما المراد بالمكر الإلهي.

الثاني: أقوال المفسرين.

الثالث: الإصرار على الذنب.

- **الأول: ما المراد بالمكر الإلهي.**

ورد أنَّ المراد بالمكر معان متعددة، وإنْ كان الغالب يراد به الخديعة والاحتيال في اللغة، فضلًا عَمَّا يطلق عليه، وقد يراد منه الممدوح والمذموم،

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٩.

(٢) تحف العقول ص٤٥٦.

وهذا ما أشار إليه الأعلام، وخصوصًا ما يتعلق بالممدوح الذي يطلق على الله تعالى، وما كان له علاقة بالبيان العربي ولسانه، ونذكر بعض ما ورد فيه:

* قال الراغب الأصفهاني: ((المَكْرُ صَرْفُ الْغَيْرِ عَمَّا يَقْصُدُهُ بِحِيْلَةٍ، وَذَلِكَ ضَرْبَانِ: مَكْرٌ مَحْمُوْدٌ وَذَلِكَ أَنْ يَتَحَرَّى بِذَلِكَ فِعْلَ جَمِيْلٍ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ﴾، وَمَذْمُوْمٌ وَهُوَ أَنْ يَتَحَرَّى بِهِ فِعْلَ قَبِيْحٍ، قَالَ: ﴿وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، وَقَالَ فِيْ الْأَمْرَيْنِ﴿ومكَرُواْ مكْراً ومَكَرْنَا مكْرًا﴾، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ مَكْرِ الله إِمْهَالُ الْعَبْدِ وَتَمْكِيْنُهُ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، وَلِذَلِكَ قَالَ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ "رَضِيَ اللهُ عَنْهُ": مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مَكْرٌ بِهِ، فَهُوَ مَخْدُوْعٌ عَنْ عَقْلِهِ))[1].

إنَّ الراغب الأصفهاني قد استعرض المعنى اللغوي للفظ المكر وما ورد فيه من معنى الحيلة التي ينصرف إليه، وهو في نفسه يراد به المعنى المذموم، وهو ما يتبادر إلى الذهن ابتداء ومباشرة من دون الالتفات إلى المعاني الأخرى التي تنصرف بالقرينة، وعرَّجَ على بيان كيفية مناقشة هذا المعنى بالنسبة لله تعالى المنزَّه عن كُلِّ نقص وعيب من حيث أنَّ هذا اللفظ إذا أُطلقَ على مورد الكمال، فبيَّن المذموم والممدوح، وأنَّ الثاني هو ما يتعلق بالله عز وجل، فالإمهال والانتظار بعدم مقابلة العبد بالسيئة والمعصية هو قد يطلق عليه المكر الممدوح.

* قال السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م): ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُوْنَ ويَمْكُرُ اللهَ﴾ هذَا من بَابِ المُقَابَلَةِ، أَيْ يُجَازِيهِمْ عَلَى مكْرِهِمْ، وَالمَكْرُ فِيْ الْأَصْلِ

(١) المفردات في غريب القرآن ص٣١١-٣١٢ (درك).

إِخْفَاءُ الْحِيْلَةِ، وَمِنْهُ: جَارِيَةٌ مَكْوُرَةُ الْبَطْنِ، أَيْ مَطْوِيٌّ مُتَدَاخِلٌ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيْ آيَاتِنَا﴾ أَيِ احْتِيَالٌ وَخِدَاعٌ لِلنَّاسِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِيْ الْقُرْآنِ إِنَّهُ شِعْرٌ وَسِحْرٌ وَأَسَاطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ لِيَصُدُّوْا غَيْرَهُمْ عَنْهُ))[1].

إنَّ السمين الحلبي أشار إلى المعنى الذي يذهب إليه المفسرون بعد بيانه للمعنى اللغوي المتقدم، وأراد بذلك بيان توجيه ما يطلق على الله تعالى، وكان كلامه فيما عليه البلاغيون من المشاكلة أو المقابلة وهما من المحسنات البديعية التي هي موجودة في كلام العرب، وسيأتي بيانه.

* قال الشيخ الطريحي: ((الْمَكْرُ مِنَ الْخَلْقِ خِبٌّ [أي غِشٌّ] وَخِدَاعٌ، وَمِنَ الله مُجَازَاةٌ، وَيَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ اسْتِدْرَاجُهُ الْعَبْدَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ، وَفِيْ الدُّعَاءِ اللَّهُمَّ لَمَكُرْ لِيْ وَلَا تَمْكُرْ بِيْ، أَرَادَ بِمَكْرِ الله إِيْقَاعَ بَلَائِهِ بِأَعْدَائِهِ دُوْنَ أَوْلِيَائِهِ))[2].

إنَّ الشيخ الطريحي أراد بيان إمكانية انصراف المكر إلى العبد وإلى غيره، فيكون الأول واقعًا على المعنى الحقيقي الموضوع له، والثاني على المعنى المجازي، وما يراه العرب من محسنات بديعية، وهذا وارد في الكلام العربي بصورة عامة، سواء في القرآن، أو الحديث الشريف، أو الدعاء، أو الشعر وغيرها[3].

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٤/ ١٠٣.

(٢) مجمع البحرين ٣/ ٤٨٤ (مكر).

(٣) ينظر: بلاغة المشاكلة في القرآن الكريم، د. باسم محمد إبراهيم، مجلة الفتح، كلية التربية الأساسية جامعة ديالى المجلد ٤، العدد ٣٢، السنة ٢٠٠٨م، ص١٨٧-١٩٧.

على أساس ما تقدم وغيره من كلمات العلماء يمكن القول بأنَّ إطلاق المكر على الله تعالى لا يستلزم النقص؛ كونه لا يراد به المعنى الدال على الفعل الصادر من الإنسان القائم على الاحتيال والالتفاف، وإنما المقابلة والمشاكلة في اللفظ، وهذا ما سنراه جليًّا في أقوال المفسرين.

أخيرًا فإنَّ الآية لَمَّا كانت لها صبغة من علوم البلاغة أحاول بيانها بإيجاز، حيث أنَّ البلاغيين قد ذكروا أنَّ الآية الشريفة وغيرها من الآيات التي وردت فيها ألفاظ المخادعة، والنسيان، وقد جرت على وفق علوم البلاغة عند العرب، ومنها (المشاكلة)، فالمشاكلة كما قال السكاكي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) في تعريفها: ((أَنْ تذكرَ الشيءَ بلفظِ غيرِهِ لوقوعِهِ في صحبتِهِ.... وقوله: ﴿ومَكَرُوْا ومَكَرَ اللهُ﴾، وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِيْ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ﴾، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾))[1]، بل عَدَّ المشاكلةَ أنَّها من وجوهِ الفصاحةِ التي ترجعُ على المعنى. وذكر الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) أنَّها: ((ذكرُ الشيءِ بلفظِ غيرِهِ لوقوعِهِ في صحبتِهِ تحقيقًا أو تقديرًا .... ونحو: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾))[2].

فعلم البلاغة من أهم العلوم التي تعين على فهم بلاغة القرآن وفصاحته، وقال السكاكي في ذلك: ((وأنْ لا علمَ في بابِ التفسيرِ بعدَ علمِ الأصولِ أَقَرَّ أَمْنَهُما على المرءِ لمرادِ الله تعالى من كلامِهِ، ولا أعونَ على تعاطي

(١) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر ص٤٢٤.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن ١/ ٣٢٧.

تأويلِ متشابهتِهِ، ولا أنفعَ في درك لطائِفِ نكتِهِ وأسرارِهِ، ولا أكشفَ للقناعِ عن وجهِ إعجازِهِ، هو الذي يُوْفِي كلامَ ربِّ العزةِ من البلاغَةِ حَقَّهُ، ويصونَ له في مظانِّ التأويلِ ماءَهُ ورونقَهُ، ولكَمْ آيةٍ من آياتِ القرآنِ تراها قد ضَيَّعَتْ حَقَّهَا، واستلَبَتْ ماءَهَا ورونَقَهَا أَنْ وَقَعَتْ أرضَ مَنْ ليسوا من أهلِ هذا العلمِ، في مآخِذَ مردودةٍ، وحملوها على محامِلَ غيرِ مقصودةٍ، وهم لا يدرونَ، ولا يدرونَ أنَّهُمْ لا يدرونَ))[1].

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

إنَّ المفسرين قد ذكروا فيما يتعلق بالآية المباركة أقوال متعددة، نذكر منها:

١ - قال الشيخ الطوسي: ((﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ﴾ كأنَّها جوابٌ لَمَنْ قالَ قد أَمِنُوا [المكرَ]، والمكرُ أَخْذُ العبدِ بالضرِّ من حيثُ لا يشعرُ، إلا أنَّه قد كَثُرَ استعمالُهُ في الحيلةِ عليهِ، قالَ الخليلُ: المكرُ الاحتيالُ بإظهارِ خلافِ الإضمارِ، وإنَّما جازَ إضافةُ المكرِ إلى الله لما في ذلكَ من المبالغةِ من جهةِ أنَّهُ قد صارَ العذابُ كالمكرِ على الحقيقةِ؛ لأنَّهُ أَخْذٌ للعبدِ بالضرِّ من حيثُ لا يشعرُ، وأصلُ المكرِ الالتفاتُ، تقول: مكرَ يمكرُ مكرًا إذا التفَّ تدبيرهُ على مكروهٍ لصاحبِهِ.

وإنَّما قال:﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُوْنَ﴾ مع أنَّ الأنبياءَ المعصومينَ يأمنونَ ذلكَ لأمرينِ: أحدُهُمَا أنَّهم لا يأمنونَ عقابَ الله للعاصينَ، ولذلك سلموا مواقعةَ الذنوبِ. الثاني﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ﴾ من المذنبينَ ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُوْنَ﴾، ومعنى الآيةِ الإبانةُ عَمَّا يجبُ أنْ يكونَ عليهِ المكلَّفُ مِنَ

(١) مفتاح العلوم ص٤٢١.

الخوفِ لعقابِ الله، ليسارعَ إلى طاعتهِ، وٱجتنابِ معاصيهِ، ولا يستشعرُ الأمنَ من ذلكَ، فيكونَ قَدْ خسرَ في دنياهُ وآخرتِهِ بالتهالكِ في القبائحِ))[1].

إنَّ تفسير الآية الشريفة ظاهر في بيان المراد من (المكر) وما يتعلق به، وما ورد عنه في إشارات إلى ما جاء في الرواية التفسيرية عن الإمام الجواد عليه السلام، والتي أكدت على أنَّ الاغترار والتسويف وعدم التوبة هو نوع من أنواع الأمن من المكر، وهذا ما يجب على الإنسان أنْ يحذره، وهذا هو مراد الشيخ بقوله: ((ومعنى الآيةِ الإبانةُ عَمَّا يجبُ أنْ يكونَ عليهِ المكلَّفُ مِنَ الخوفِ لعقابِ الله، ليسارعَ إلى طاعتهِ، وٱجتنابِ معاصيهِ، ولا يستشعرُ الأمنَ من ذلكَ، فيكونَ قَدْ خسرَ في دنياهُ وآخرتِهِ بالتهالكِ في القبائحِ))، فعلى الإنسان المؤمن خاصة أنْ يكون على بينة من عظمة ما أنعم الله عليه كالصحةِ والسلامةِ وطول العمرِ وتظاهرِ النعمةِ وتسخيرها في طاعته[2].

٢- قال الزمخشري: ((ومكرُ الله ٱستعارةٌ لأخذهِ العبدَ من حيثُ لا يشعرُ ولاستدراجهِ، فعلى العاقلِ أنْ يكونَ في خوفهِ من مكرِ الله، كالمحاربِ الذي يخافُ من عدوِّهِ الكمينِ والبياتِ والغيلةِ))[3].

إنَّ في تشبيه العاقل الآمن من المكر بما يغترُّ به من عفو وعدم العقوبة بالذي يبات حذرًا إنَّما هو كمال الأمن من المكر من حيث لا يشعر، وما معنى الرواية إلا للتحذير من ذلك.

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٨٠-٤٨١.

(٢) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن ٢/ ٦٩٩.

(٣) تفسير الكشاف ٢/ ١٢٦.

٣- قال الفخر الرازي: ((﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ إنَّ المرادَ أنْ يأتيهُمْ عذابُهُ من حيثُ لا يشعرونَ، قالَهُ على وجهِ التحذيرِ، وسُمِّيَ هذا العذابُ مكرًا توسُّعًا؛ لأنَّ الواحدَ مِنَّا إذا أرادَ المكرَ بصاحبِهِ، فإنَّه يوقِعُهُ في البلاءِ من حيثُ لا يشعرُ بهِ، فسُمِّيَ العذابُ مكرًا لنزولِهِ بهم من حيثُ لا يشعرونَ، وبيَّنَ أنَّهُ لا يأمنُ من نزولِ عذابِ الله على هذا الوجهِ ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُوْنَ﴾ وهم الذينَ لغفلتِهِمْ وجهلِهِمْ لا يعرفونَ ربَّهُمْ، فلا يخافونَهُ، ومَنْ هذهِ سبيلُهُ فهوَ أخسرُ الخاسرينَ في الدنيا والآخرةِ؛ لأنَّهُ أوقعَ نفسَهُ في الدنيا في الضرُّرِ، وفي الآخرةِ في أشدِّ العذابِ))[1].

إنَّ كلام الرازي واضح في توجيه المراد من المكر كما تقدم من التعريف له، والرجوع في ذلك إلى ٱستعمالات العرب من حيث الحقيقة والمجاز، أو غيرهما، فضلًا عَمَّا تقدم من كلام المفسرين في إمهال الله العبد وإمداده بالنِّعَم، وهذا تأكيد للرواية التفسيرية الشريفة.

- ***الثالث: الإصرار على الذنوب.***

إنَّ من أعظم الاجتراء على الله تعالى هو الإصرار على الذنوب والمعاصي، وعد التوبة والرجوع إليه نادمًا من ذلك، وقد حذرت كثير من الروايات المؤمنين من ذلك، سواء كان ذلك في كبائر الذنوب أو صغائرها، فإنَّها مخالفَة للأوامر الإلهية، بل حثت على التوبة وعد تسويفها والمماطلة فيها، والوثوق بالصحة والعمر، أو المال والأولاد، والغرور بلهو الدنيا ولغوها، وهذا في

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٣٢٢.

الواقع هو ما صدر من الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام في جميع فقرات الرواية، وخصوصًا في قوله: ((وَالإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ أَمْنٌ لِمَكْرِ الله))، ونحاول أنْ نعرض بعض الروايات الشريفة التي أكدت النهي على ذلك، والحث على التوبة.

- عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((لَا كَبِيْرَ مَعَ الاسْتِغْفَارِ، وَلَا صَغِيْرَ مَعَ الْإِصْرَارِ))[١].

- روي عن الإمام علي عليه السلام: ((أَعْظَمُ الذُّنُوْبِ عِنْدَ الله سُبْحَانَهُ ذَنْبٌ صَغُرَ عِنْدَ صَاحِبِهِ))[٢].

- وعنه عليه السلام: ((أَشَدُّ الذُّنُوْبِ عِنْدَ الله سُبْحَانَهُ، ذَنْبٌ اسْتَهَانَ بِهِ رَاكِبُهُ))[٣].

- روي عن الإمام الباقر عليه السلام: ((لَا مُصِيْبَةَ كَاسْتِهَانَتِكَ بِالذَّنْبِ، وَرِضَاكَ بِالحَالَةِ الَّتِيْ أَنْتَ عَلَيْهَا))[٤].

- روي عن الإمام الكاظم عليه السلام: ((لَا تَسْتَقِلُّوْا قَلِيْلَ الذُّنُوْبِ، فَإِنَّ قَلِيْلَ الذُّنُوْبِ يُجْتَمِعُ حَتَّى يَكُوْنَ كَثِيْرًا))[٥].

وللذنوب آثار كبيرة مختلفة على النفس يُحْرَمُ بسببها الإنسان كثيرًا من المنازل والمقامات عند الله تعالى، بل عند الناس في المجتمع، وللتوبة أثر كبير في دفع ذلك والرجوع إلى الله عز وجل، والفوز بالمنازل الرفيعة التي أعدها الله

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي ٦٩/ ٣١٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي التميمي ص٢٠١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تحف العقول ص٢٠٥.
(٥) ميزان الحكمة ٣/ ١٣٣٧.

تعالى لعباده التائبين، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ مُؤْمِنٍ تَائِبٍ أَوْ تَائِبَةٍ))[1].

فعلينا الحذر من الأمن من مكر الله تعالى بالإصرار على الذنب؛ لأنَّه يُعَدُّ اغترارًا بعفوه تعالى وكرمه، وإمهاله للعاصين كما ذكر الإمام الجواد عليه السلام، فيجب أنْ لا نغترَّ بذلك حتى يغرق العبد بالذنوب والمعاصي، فيستحوذ عليه الشيطان كما قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله﴾[2].

فسياق الحديث الشريف يؤكد أنَّ تأخير التوبة والتسويف والاعتلال والإصرار يؤدي إلى أنْ يزيِّن الشيطان للإنسان اللذات والشهوات والمعاصي، وإذا بأمر الله يأتيه من حيث لا يعلم، فيكون من الخاسرين حيث لا ينفعه الندم يومئذ.

(١) بحار الأنوار ٦/ ٢١.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١٩.

- الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوْا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[1].

* روي عن علي بن مهزيار[2]، قال: ((كَتَبَ أَبُوْ الْحَسَنِ بْنُ الْحُصَيْنِ[3] إِلَى أَبِيْ جَعْفَرٍ الثَّانِيْ عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ قَدِ اخْتَلَفَتْ مُوَالُوْكَ فِيْ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّيْ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ الْأَوَّلُ الْمُسْتَطِيْلُ فِيْ السَّمَاءِ ....فَكَتَبَ: فَالْخَيْطُ الْأَبْيَضُ هُوَ الْمُعْتَرِضُ الَّذِيْ يَحْرُمُ بِهِ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ فِيْ الصَّوْمِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الَّذِيْ تُوْجِبُ بِهِ الصَّلَاةُ))[4].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبيِّن مسألة مهمة تتعلق بوقت طلوع الفجر، وعلاقة هذا الوقت ببداية وقت الصوم الشرعي وأداء صلاة الفجر، ولأجل أنْ نكون على بينة مما ورد في الرواية الشريفة وما تضمنته نحاول بيان موضوعين بإيجاز:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٢) أبو الحسن علي بن مهزيار الأهوازي، كان أبوه نصرانيًّا فأسلم، صحيح العقيدة، ثقة في الرواية، جليل القدر، واسع الرواية، اختص بالإمام الجواد عليه السلام وكان وكيلًا عنه، وذا منزلة عظيمة، وكذلك في زمن الإمام الهادي عليه السلام وكان وكيلًا له في بعض النواحي. ينظر: معجم رجال الحديث، السيد أبو القاسم الخوئي ١٣/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) ثقة، من أصحاب الإمام الجواد عليه السلام، وعُدَّ أيضًا من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام. ينظر: معجم رجال الحديث ٢٢/ ١٣٩.

(٤) الكافي ٣/ ٢٨٢.

الأول: المراد من الخيط الأبيض والأسود والأحكام المتعلقة بهما.

الثاني: أقوال المفسرين في الآية.

- **الأول: الخيط الأبيض والأسود.**

إنَّ المراد من الخيط الأبيض هو طلوع الفجر الصادق، والخيط الأسود هو الليل، وهذا ما تم ذكره في بيان المراد من هذين التعبيرين في القرآن الكريم، حيث تحديد وَقْتَي الفجر والليل، ونذكر بعض ما ورد فيه:

* قال الراغب الأصفهاني: ((الْخَيْطُ مُعْرُوْفٌ، وَجَمْعُهُ خُيُوْطٌ .... قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أَيْ بَيَاضُ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ))[1].

إنَّ الراغب الأصفهاني قد استعرض المعنى العام الذي أشارت إليه الرواية التفسيرية الواردة لهذه الآية المباركة، فضلاً عما ذكره المفسرون لذلك، من حيث التمييز بين الليل والنهار، حيث ابتداء الصوم مع طلوع الفجر المعبَّر عنه بالخيط الأبيض.

* قال الشيخ الطريحي: ((الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ بَيَاضُ النَّهَارِ، وَالْخَيْطُ الْأَسْوَدُ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَقِيْلَ: الْخَيْطُ الْأَسْوَدُ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيْلُ، وَالْأَبْيَضُ الْفَجْرُ الْمُعْتَرِضُ))[2].

إنَّ الشيخ الطريحي قد ذكر ما ذكره الأعلام من قبل في بيان ما يتعلق بهذين الخيطين الواردين في القرآن الكريم، ولكنه أضاف معنى آخر يمكن من

(١) المفردات في غريب القرآن ص١٦١ (خيط).

(٢) مجمع البحرين ٤/ ٢٤٧ (خيط).

خلاله معرفة أنَّ المراد بهذين الخيطين هو الفجر الكاذب، والفجر الصادق، فيمثل الأول الخيط الأسود، والثاني الخيط الأبيض.

وعلى أساس ما تقدم من التعريفين كان هو المستفاد في بيان الأحكام المختصة بالعبادات المؤقتة في هذا الوقت، والتي منها بداية صلاة الفجر، وبداية الوقت الشرعي للصوم، وهذا ما ذكره العلماء في مؤلفاتهم الخاصة بآيات الأحكام، قال الشيخ قطب الدين الراوندي في بيان تحديد وقت الصوم: ((وَقِيْلَ خَيْطُ الْفَجْرِ الثَّانِيْ مِمَّا كَانَ فِيْ مَوْضِعِهِ مِنَ الظَّلَامِ، وَقِيْلَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ، فَأَوَّلُ النَّهَارِ طُلُوْعُ الْفَجْرِ الثَّانِيْ؛ لِأَنَّهُ أَوْسَعُ ضِيَاءً))[1]، وقال بعد بيانه ما يتعلق ببداية الفجر: ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ مَعْنَيَيْنِ: التَّبْعِيْضُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى بَعْضُ الْفَجْرِ وَلَيْسَ الْفَجْرُ، أَوْ التَّبْيِيْنُ؛ أَيْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ الَّذِيْ هُوَ الْفَجْرُ))[2].

وقال الشيخ المقداد السيوري في بيان الأحكام المتعلقة بالآية من حيث الصوم: ((الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ هُوَ الْفَجْرُ الثَّانِيْ الْمُعْتَرِضُ فِيْ الْأُفُقِ كَالْخَيْطِ الْمَمْدُوْدِ، وَالْخَيْطُ الْأَسْوَدُ مِمَّا يَمْتَدُّ مَعَهُ مِنَ الْغَبَشِ تَشْبِيْهًا بِخَطَّيْنِ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ، وَلَيْسَا بِمُسْتَعَارَيْنِ لِقَوْلِهِ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ لِأَنَّ مِنْ شَرْطِ الاسْتِعَارَةِ أَنْ يَجْعَلَ الْمُسْتَعَارَ مِنْهُ نَسْيًا مَنْسِيًّا))[3].

---

(١) فقه القرآن ١/ ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كنز العرفان ص١٩١. وقد ورد أنَّ الخيطين في الآية إنما على وجه التشبيه ((فقد شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق بالخيط الأبيض الممدود، وما يمتد من غبش

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

إنَّ المفسرين قد ذكروا فيما يتعلق بالآية المباركة أقوال متعددة، نذكر منها:

١- **قال الفخر الرازي** بعد بيانه بما يتعلق بمعنى الخيط الأبيض والأسود: ((وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَجْرَ إِنَّمَا يُسَمَّى فَجْرًا لِأَنَّهُ يَنْفَجِرُ مِنْهُ النُّوْرُ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَحْصَلُ فِيْ الصُّبْحِ الثَّانِيْ لَا فِيْ الصُّبْحِ الْأَوَّلِ، فَلَمَّا دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ يَجِبُ أَنْ يكُوْنَ مِنَ الْفَجْرِ، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ الصُّبْحَ الْكَاذِبَ، بَلِ الصُّبْحَ الصَّادِقَ، فَإِنْ قِيْلَ: فَكَيْفَ يُشَبِّهُ الصُّبْحَ الصَّادِقَ بِالْخَيْطِ، مَعَ أَنَّ الصُّبْحَ الصَّادِقَ لَيْسَ بِمُسْتَطِيْلٍ وَالْخَيْطُ مُسْتَطِيْلٌ.

وَجَوَابُهُ: إِنَّ الْقَدَرَ مِنَ الْبَيَاضِ الَّذِيْ يُحَرَّمُ هُوَ أَوَّلُ الصُّبْحِ الصَّادِقِ، وأَوَّلُ الصُّبْحِ الصَّادِقِ لاَ يكُوْنُ مُنْتَشِرًا، بَلْ يكُوْنُ صَغِيْرًا دَقِيْقًا، بَلِ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَالصُّبْحِ الْكَاذِبِ أَنَّ الصُّبْحَ الْكَاذِبَ يَطْلُعُ دَقِيْقًا، وَالصَّادِقُ يَبْدُوْ دَقِيْقًا، وَيَرْتَفِعُ مُسْتَطِيْلاً، فَزَالَ السُّؤالُ))[1].

إنَّ تفسير الآية الشريفة ظاهر في بيان الفرق بين الصُّبْحَين الكاذب والصادق وصورة كُلٍّ منهما في الأفق، وأهمية التمييز بينهما لمعرفة البداية الحقيقية للشروع بالصوم والكف عن المفطرات.

٢- **قال السيد الطباطبائي:** ((الْفَجْرُ فَجْرَانِ، فَجْرٌ أَوَّلٌ يُسَمَّى بِالْكَاذِبِ؛ لِبُطْلَانِهِ بَعْدَ مَكْثٍ قَلِيْلٍ، وَبِذَنْبِ السَّرْحَانِ؛ لِمُشَابَهَتِهِ ذَنَبَ الذِّئْبِ إِذَا شَالَهُ،

الليل بالخيط الأسود الممدود، وهو تشبيه مألوف كثيرًا)). إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش ٢/ ٢٤٥.

(١) التفسير الكبير ١٥/ ٢٧٣.

وَعَمُوْدٌ شُعَاعِيٌّ يَظْهَرُ فِيْ آخِرِ اللَّيْلِ فِيْ نَاحِيَةِ الْأُفُقِ الشَّرْقِيِّ إِذَا بَلَغَتْ فَاصِلَةُ الشَّمْسِ مِنْ دَائِرَةِ الْأُفُقِ إِلَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ دَرَجَةٍ تَحْتَ الْأُفُقِ، ثُمَّ يُبْطَلُ بِالاعْتِرَاضِ فَيَكُوْنُ مُعْتَرِضًا مُسْتَطِيْلاً عَلَى الْأُفُقِ، كَالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ الْمَمْدُوْدِ عَلَيْهِ وَهُوَ الْفَجْرُ الثَّانِيْ، وَيُسَمَّى الْفَجْرُ الصَّادِقُ؛ لِصِدْقِهِ فِيْمَا يَحْكِيْهِ، وَيُخْبِرُ بِهِ مِنْ قُدُوْمِ النَّهَارِ وَاتِّصَالِهِ بِطُلُوْعِ الشَّمْسِ، وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ هُوَ الْفَجْرُ الصَّادِقَ ... وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ التَّحْدِيْدُ بِأَوَّلِ حِيْنٍ مِنْ طُلُوْعِ الْفَجْرِ الصَّادِقِ فَإِنَّ ٱرْتِفَاعَ شُعَاعِ بَيَاضِ النَّهَارِ يُبْطِلُ الْخَيْطَيْنِ، فَلَا خَيْطَ أَبْيَضَ، وَلَا خَيْطَ أَسْوَدَ))[1].

من خلال ما تقدم تكون الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام، واضحة البيان والبرهان على تحديد الوقت الأول للشروع في الصوم، والإمساك عن المفطرات التي حددتها الشريعة المقدسة، وكذلك الأمر في بيان أول وقت صلاة الفجر، وفي ذلك ظهور الاتفاق التام في منهج الثقلين في بيان تعاليم وأحكام الشريعة.

(١) الميزان في تفسير القرآن ٢/ ٤٩.

- **الآية السادسة:**

قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١].

* عن عبد العظيم الحسني [٢]، عن أبي جعفر الثاني [الجواد] عليه السلام قال: ((مَنْ زَارَ الْحُسَيْنَ عليه السلام لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِيْ يُرْجَى أَنْ تكُوْنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَفِيْهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيْمٍ صَافَحَهُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُوْنَ أَلْفَ مَلَكٍ وَنَبِيٍّ، كُلُّهُمْ يَسْتَأْذِنُ اللهَ فِيْ زِيَارَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فِيْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ))[٣].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة بصدد بيان ما يتعلق بفضل زيارة الإمام الحسين عليه السلام في ليلة القدر، وقد تم الإفادة منها في تحديد تلك الليلة على الأكثر وهي الليلة الثالثة والعشرون، فضلًا عن تفسير الآية المباركة بهذه الليلة العظيمة من ليالي شهر رمضان، التي هي خير من ألف شهر ونزل القرآن الكريم فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [٤]، وفي الآية المباركة نحاول بيان موضوعين بإيجاز:

الأول: الأحاديث الواردة في بيان وتحديد ليلة القدر.

الثاني: أقوال المفسرين في الآية المباركة.

---

(١) سورة الدخان: الآية ٤.

(٢) أبو القاسم عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد الشهيد، له منزلة رفيعة، وعُدَّ من أصحاب الإمامين الجواد والهادي عليهما السلام، مات بالري وقبره هناك يزار. ينظر: معجم رجال الحديث ١٢/ ٥٠.

(٣) وسائل الشيعة، الحر العاملي ١٤/ ٤٧٤.

(٤) سورة القدر: الآيات ١-٣.

- **الأول: الأحاديث الواردة في بيان وتحديد ليلة القدر.**

لقد وردت روايات متعددة في بيان وتحديد ليلة القدر المباركة، فبعضها قد حددها بليلة واحدة مع ذكرها، وأخرى حددتها في ليلتين مباركتين، وثالثة حددتها في أكثر من ذلك، ونذكر بعض تلك الروايات الواردة فيها.

١- ليلة القدر هي الثالثة والعشرون من شهر رمضان.

- روي ((أَنَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عليه السلام كَانَ لَا يَنَامُ فِيْ السَّنَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَيَقُوْلُ إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِيْ تُرْجَى أَنْ تكُوْنَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَلَيْلَةَ الْفِطْرِ، وَيَقُوْلُ فِيْ هَذِهِ اللَّيْلَةِ يُعْطَى الْأَجِيْرُ أَجْرَهُ، وَلَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ....))[١].

- عن الإمام محمد الجواد عليه السلام قال: ((مَنْ زَارَ الْحُسَيْنَ عليه السلام لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِيْ يُرْجَى أَنْ تكُوْنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ....))[٢].

٢- ليلة القدر هي الحادية والعشرون أو الثالثة والعشرون من شهر رمضان.

- عن زرارة عن أبي جعفر [الباقر] عليه السلام قال: ((سَأَلْتُهُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ؟ قَالَ: هِيْ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ، أَوْ ثَلَاثٌ وَعِشْرِيْنَ، قُلْتُ: أَلَيْسَ إِنَّمَا هِيَ لَيْلَةٌ؟

(١) مسار الشيعة، الشيخ المفيد ص٦٣.

(٢) وسائل الشيعة ١٤/ ٤٧٤.

قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِيْ بِهَا؟ قَالَ: مَا عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ خَيْرًا فِيْ لَيْلَتَيْنِ))[١].

- عن الإمام الصادق عليه السلام في رواية عن عن غسل الجمعة [والأغسال المستحبة الأخرى] فقال: ((وَغُسْلُ لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ، وَغُسْلُ لَيْلَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِيْنَ سُنَّةٌ لَا تَتْرُكْهَا، فَإِنَّهُ يُرْجَى فِيْ إِحْدَيْهِنَّ لَيْلَةُ الْقَدْرِ))[٢].

- عن حسان بن مهران عن أبي عبد الله [الصادق] عليه السلام قال: ((سَأَلْتُهُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَقَالَ: ٱلْتَمِسْهَا [فِيْ] لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ، أَوْ لَيْلَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِيْنَ))[٣].

٣- ليلة القدر هي التاسعة عشر أو الحادية والعشرون أو الثالثة والعشرون من شهر رمضان.

- عن أبي عبد الله [الصادق] عليه السلام قال: ((فِيْ لَيْلَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ التَّقْدِيْرُ، وَفِيْ لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ الْقَضَاءُ، وَفِيْ لَيْلَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِيْنَ إِبْرَامُ مَا يَكُوْنُ فِيْ السَّنَةِ إِلَى مِثْلِهَا، لله جَلَّ ثَنَاؤُهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فِيْ خَلْقِهِ))[٤].

- عن حسان أبي علي قال: سألت أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام عن ليلة القدر؟ قال: ((ٱطْلُبْهَا فِيْ تِسْعَ عَشْرَةَ، وَإِحْدَى وَعِشْرِيْنَ، وَثَلَاثٍ وَعِشْرِيْنَ)) [٥].

وهناك رواية أخرى وردت في غير هذه الليالي أعرضت عن ذكرها لاشتهار الليالي الثلاث المتقدمة في الأحاديث المتعددة.

---

(١) وسائل الشيعة ١٠/ ٣٥٩.

(٢) الكافي ٣/ ٤٠.

(٣) المصدر نفسه ٤/ ١٥٦.

(٤) وسائل الشيعة ١٠/ ٣٥٧.

(٥) المصدر نفسه ١٠/ ٣٦١.

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

إنَّ للمفسرين أقوالًا متعددة في بيان ما يتعلق بالآية المباركة، منها متباين متفق، ومنها مختلف، ولكنها إجمالاً تدل على ليلة مباركة عظيمة عند الله تعالى، ونذكر من تلك الأقوال:

١- قال الشيخ الطوسي: ((إخبارٌ منه تعالى أَنَّهُ أنزلَ القرآنَ في الليلةِ المباركةِ، وهي ليلةُ القدرِ -في قول قتادة وٱبن زيد-، وقالَ قومٌ: هي ليلةُ النصفِ من شعبانَ. والأولُ أصحُّ لقولهِ تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيْ أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ﴾، وقيلَ: هي في كُلِّ شهرِ رمضانَ، فيها تقسَّمُ الآجالُ والأرزاقُ وغيرهُمَا من الألطافِ -في قول الحسن-، وقيل: أنزلَ إلى السماءِ الدنيا في ليلةِ القدر، ثم أنزلَ نجومًا على النبيِّ صلى الله عليه وآله، وقيلَ: ينزلُ في ليلةِ القدرِ قدرَ ما يحتاجُ إليهِ في تلكَ السنةِ. وقيلَ: المعنى إنَّ ٱبتداءَ إنزالِهِ في ليلةٍ مباركةٍ، ووصفَها بأنَّها مباركَةٌ؛ لأنَّ فيها يقسِّمُ اللهُ تعالى نِعَمَهُ على عبادهِ من السنةِ إلى السنةِ. والبركةُ نماءُ الخيرِ))[1].

إنَّ الشيخ الطوسي قدس سره قد ذكر أقوالًا ثلاثة في بيان المراد من تلك (الليلة المباركة)، واحدًا منها يتعلق بـ(ليلة القدر) الموافق للرواية التفسيرية عن الإمام الجواد عليه السلام، من غير أنْ يرجِّح أي قولٍ منها، بل ذكرها كما وردت عن رواتها، إلا ما ورد في أنها ليلة النصف من شعبان فقد نسبها إلى قوم، ثم بعد ذلك بيَّن بإيجاز الأقوال الواردة في بداية نزول القرآن الكريم وكيفيته.

٢- قال الفخر الرازي: ((ٱختلفوا في هذهِ الليلةِ المباركةِ فقالَ الأكثرونَ: إنَّها "ليلة القدر"، وقال عكرمة وطائفة آخرون: إنها ليلة البراءة، وهي "ليلة

(١) التبيان في تفسير القرآن ٩/ ٢٢٤.

النصف من شعبان"، أما الأولونَ فقد ٱحتجوا على صحةِ قولِهم بوجوهٍ: أولها: إنَّهُ تعالى قال :﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وها هنا قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ فوجَبَ أنْ تكونَ هذهِ "الليلة المباركة" هي تلكَ المسماةُ بـ"ليلة القدر"؛ لئلا يلزمُ التناقضُ. وثانيها: إنَّهُ تعالى قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيْ أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ﴾ فبيَّنَ أنَّ إنزالَ القرآنِ إنَّما وقعَ في شهرِ رمضانَ، وقالَ ها هنا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ فوجبَ بأنْ تكونَ هذه الليلةُ واقعةً في شهرِ رمضانَ، وكُلُّ مَنْ قالَ إنَّ هذهِ "الليلة المباركة" واقعةً في شهرِ رمضانَ قالَ "إنها ليلة القدر"، فثبتَ إنَّها ليلةُ القدرِ. وثالثها: إنَّهُ تعالى قالَ في صفةِ ليلةِ القدرِ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوْحُ فِيْهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ﴾ وقال أيضًا ها هنا: ﴿فِيْهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيْمٍ﴾، وهذا مناسبٌ لقوله:﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوْحُ فِيْهَا﴾ وها هنا قال: ﴿أَمْرًا مّنْ عِنْدِنَا﴾، وقال في تلكَ الآيةِ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، وقالَ ها هنا: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَّبّكَ﴾ وقال في تلك الآية: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾، وإذا تقاربَتِ الأوصافُ وجبَ القولُ بأنَّ إحدى الليلتينِ هي الأخرى .... وأما القائلونَ بأنَّ المرادَ من "الليلة المباركة" المذكورةِ في هذهِ الآيةِ هي "ليلة النصف من شعبان" فما رأيتُ لهم فيه دليلًا يعوَّلُ عليه، وإنَّما قنعوا فيه بأنْ نقلوهُ عن بعضِ الناسِ، فإنْ صَحَّ عن رسولِ الله "صلى الله عليه [وآله] وسلم" فيهِ كلامٌ فلا مزيدَ عليهِ، وإلا فالحقُّ هو الأولُ، ثم إنَّ هؤلاءِ القائلينَ بهذا القولِ زعموا أنَّ ليلةَ النصفِ من شعبانَ لها أربعةُ أسماءٍ: الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصك ، وليلة الرحمة))[1].

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٦٥٢.

إنَّ الفخر الرازي قد فصَّل القول في بيان أنَّ المراد من (الليلة المباركة) إنما هي (ليلة القدر) وهو الراجح عنده من خلال القرائن التفسيرية التي ذكرها نسبة للقائلين بذلك، وهو الإفادة من الصفات المشتركة الواردة في القرآن الكريم بين الآية المباركة وما ورد في سورة القدر، وقد اعتمدوا في ذلك بتفسير القرآن بالقرآن وهو من موارد التفسير بالمأثور، وما ورد من مقارنة بينهما يبيِّن عظمة هذا الليلة التي يتحدث القرآن عنها بمزيد من العناية والتعظيم، وقد أشار إلى ضعف القول بأنها ليلة النصف من شعبان بقوله (بأن نقلوه عن بعض الناس).

٣- قال السيد الطباطبائي: ((قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِيْنَ﴾ المراد بـ(الليلة المباركة) التي نزل فيها القرآن (ليلة القدر) على ما يدل عليه قوله تعالى: :﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وكونها مباركة ظرفيتها للخير الكثير الذي ينبسط على الخلق من الرحمة الواسعة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وظاهر اللفظ أنَّها إحدى الليالي التي تدور على الأرض، وظاهر قوله: ﴿فِيْهَا يُفْرَقُ﴾ الدال على الاستمرار أنَّها تتكرر، وظاهر قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيْ أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ﴾، أنَّها تتكرر بتكرر شهر رمضان، فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية، وتقع في كُلِّ سنة قمرية مرة واحدة في شهر رمضان، وأما إنَّها أي ليلة هي؟ فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك))[1].

وفي ذلك توافق بين أقوال المفسرين والرواية التفسيرية.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٨/ ١٣٢.

- **الآية السابعة:**

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾[١].

* روي عن داود بن القاسم الجعفري[٢]، قال: ((قُلْتُ لِأَبِيْ جَعْفَرٍ الثَّانِيْ عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ! مَا (الصَّمَدُ)؟

قَالَ: السَّيِّدُ الْمُصْمُوْدُ إِلَيْهِ فِي الْقَلِيْلِ وَالْكَثِيْرِ))[٣].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبيِّن مسألة مهمة تتعلق بالأصل الأول من أصول العقيدة وهو التوحيد وما فيه من مسائل جوهرية، ولأجل أنْ نكون على بينة مما ورد في الرواية وما تضمنته نحاول بيان موضوعين بإيجاز:

الأول: المراد من التوحيد وما يتعلق به.

الثاني: أقوال المفسرين في الآية المباركة.

- **الأول: التوحيد وما يتعلق به.**

يعد البحث في العقيدة من أهم البحوث العقائدية في الديانات كلها، والمذاهب الإسلامية أيضًا، والشريعة الإسلامية قد اعتنت بمباحث التوحيد

---

(١) سورة الإخلاص: الآيتان ١-٢.

(٢) أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري، شريف القدر، ثقة، من أهل بغداد، جليل القدر، عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، وقد شاهد جماعة منهم الرضا والجواد والهادي والعسكري وصاحب الأمر عليهم السلام، وروى عنهم كلهم، وله أخبار ومسائل، وشعر جيد فيهم. ينظر: معجم رجال الحديث ٨/ ١٢٣.

(٣) الكافي ١/ ١٢٣.

كثيرًا، من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، فضلًا عن المؤلفات الكلامية الكثيرة في هذا الباب منذ القرن الأول إلى يومنا على ٱختلاف المذاهب الإسلامية، فلا بد من البحث فيه من خلال بيان توحيد الذات، والصفات، والأفعال، العبودية؛ ليكون المؤمن على بينة تامة أو مجملة عن معبوده، ومعرفة ما يليق به من صفات ثبوتية جمالية، عمَّا لا يليق به من صفات سلبية جلالية، وقد أشار أمير المؤمنين إلى أهمية هذه المعرفة التي هي أساس الدين وآثارها على الإنسان، فقال عليه السلام في خطبة له: ((أَوَّلُ الدِّيْنِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيْقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيْقِ بِهِ تَوْحِيْدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيْدِهِ الْإِخْلاَصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلاَصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوْفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوْفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ فِيْمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ عَلاَمَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ ....))[1].

وفيما يتعلق بتعريف (الصمد) فقد ورد فيه تعريفات متعدد، منها:

* قال الراغب الأصفهاني: ((الصَّمْدُ السَّيِّدُ الَّذِيْ يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْأَمْرِ، وَصَمَدَ صَمَدَهُ قَصَدَ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ قَصْدُهُ، وَقِيْلَ: الصَّمَدُ الَّذِيْ لَيْسَ بَأَجْوَفَ، وَالَّذِيْ لَيْسَ بِأَجْوَفَ شَيْئَانِ:أَحَدُهُمَا لِكَوْنِهِ أَدْوَنَ مِنَ الْإِنْسَانِ كَالْجَمَادَاتِ، وَالثَّانِيْ أَعْلَى مِنْهُ وَهُوَ الْبَارِيْ وَالْمَلَائِكَةُ، وَالْقَصْدُ بِقَوْلِهِ: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ تَنْبِيْهًا أَنَّهُ بِخِلَافِ مَنْ أَثْبَتُوْا لَهُ الْإِلَهِيَّةَ))[2].

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ١/ ١٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص٢٨٦ (صمد).

إنَّ الراغب الأصفهاني قد ذكر الأقوال الواردة في معنى (الصمد)، وأشار في واحد منها إلى ما ورد في الرواية التفسيرية، وهو قوله (السَّيِّدُ الَّذِيْ يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْأَمْرِ)، فالأمر يمكن أنْ ينطبق على القليل والكثير الوارد في الرواية، فمن ذلك يمكن معرفة أنَّ جواب الإمام الجواد عليه السلام كان موافقًا للمعاني الواردة عند العرب في بيان المراد من (الصمد).

* قال الشيخ الطريحي: ((قِيْلَ: الصَّمَدُ الَّذِي ٱنْتَهَى إِلَيْهِ السُّؤْدَدُ. وَقِيْلَ: هُوَ الدَّائِمُ الْبَاقِيْ. وَقِيْلَ هُوَ الَّذِيْ يُصْمَدُ فِي الْحَوَائِجِ أَيْ يُقْصَدُ. قَالَ بَعْضُ الْأَعْلَامِ: ٱخْتَلَفَ أَقَاوِيْلُ أَهْلِ التَّفْسِيْرِ فِيْ بَيَانِ الصَّمَدِ، وَأَوْلَى تِلْكَ بِالتَّقْدِيْمِ مَا وَافَقَ أُصُوْلَ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَٱشْتُهِرَ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ أَنَّ الصَّمَدَ السَّيِّدُ الْمُتَفَوِّقُ فِيْ السُّؤْدَدِ، الَّذِيْ يَصْمَدُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِيْ حَوَائِجِهِمْ وَأُمُوْرِهِمْ. وَفِيْ الْحَدِيْثِ "الصَّمَدُ الْمُصْمُوْدُ إِلَيْهِ فِي الْقَلِيْلِ وَالْكَثِيْرِ".... وَاللهُ هُوَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِيْ جَمْعُ الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَصْمُدُوْنَ فِي الْحَوَائِجِ وَيَلْجَؤُوْنَ إِلَيْهِ فِيْ الشَّدَائِدِ، وَمِنْهُ يَرْجُوْنَ الرَّخَاءَ وَدَوَامَ النِّعْمَةِ وَالرَّفْعَ عَنِ الشَّدَائِدِ. وَالصَّمَدُ: الْقَصْدُ، يُقَالُ صَمَدَهُ يَصْمِدُهُ صَمْدًا: قَصَدَهُ. وَمِنْهُ الدُّعَاءُ "اللَّهُمَّ إِلَيْكَ صَمَدْتُ مِنْ بَلَدِيْ"))[1].

إنَّ الشيخ الطريحي ذكر أغلب المعاني الواردة عند الأعلام في بيان المراد من (الصمد)، والتي يوافق بعضها الروايات الواردة في بيان ذلك، بل ذكر نص الرواية التفسيرية التي أشارت إلى المصمود إليه، وإجمالًا فهو يدل على معنًى من

(١) مجمع البحرين ٢/ ٦٣٤ (صمد).

معاني الكمال الواردة في صفات الإله المعبود، وهذا ما ذكره العلامة المطفوي (ت١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) بعد بيان الأقوال في معناه بقوله: ((فَالصَّمَدُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَهُوَ مَنْ يَكُوْنُ لَهُ مَقَامٌ رَفِيْعٌ فَوْقَ جَمِيْعِ الْمَقَامَاتِ، يَخْضَعُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ كُلُّ مَوْجُوْدٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْجَمِيْعُ، وَيُقْصَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ))[1].

ومما قال الشيخ المازندراني في شرحه للرواية: ((وَأَشَارَ بِذِكْرِ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ إِلَى أَنَّ الْمُعْتَبَرَ فِيْ مَفْهُوْمِ الصَّمَدِ هُوَ كَوْنَهُ مَرْجُوْعًا إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ كُلِّهَا قَلِيْلِهَا وَكَثِيْرِهَا، حَقِيْرِهَا وَكَبِيْرِهَا؛ لِلْتَنْبِيْهِ عَلَى أَنَّ الْأَحَقَّ بِهَذَا الاسْمِ هُوَ الْحَقُّ الْغَنِيُّ عَنِ الْغَيْرِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَأَنَّ إِطْلَاقَهُ عَلَى غَيْرِهِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيْلِ التَّجَوُّزِ وَالْإِضَافَةِ؛ إِذْ كُلُّ سَيِّدٍ سِوَاهُ فَهُوَ فِيْ رِبْقَةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْغَيْرِ فَلَيْسَ مَصْمُوْدًا إِلَيْهِ فِي الْجَمِيْعِ))[2].

وعلى أساس ما تقدم من التعريفين للمراد من لفظ (الصمد) نرى أنَّ التطابق بيان ما ذكر في الرواية التفسيرية وما ورد من كلمات العلماء لبيان حقيقة هذا اللفظ العظيم الوارد في بيان واحدة من صفات الله تعالى الدالة على حقيقة المعبود، وما يجب أنْ تتوافر فيه من صفات خاصة لا يشاركه فيه أحد من المخلوقين.

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٦/ ٣٣٩.

(٢) شرح أصول الكافي ٤/ ٦٠.

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

إنَّ المفسرين قد ذكروا فيما يتعلق بالآية المباركة أقوال متعددة، نذكر منها:

١- قال الشيخ الطوسي: ((وقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ معناهُ الذي تحقُّ لَهُ العبادةُ، هُوَ الموصوفُ بأَنَّهُ (الصمد). وقيل: في معناهُ قولانِ: أحدهما: قالَ ٱبنُ عباسٍ وشقيقٌ وأبو وائلٍ: إنَّهُ السيِّدُ المعظَّمُ .... الثاني: إنَّ معناهُ الذي يصمدُ إليهِ في الحوائجِ، ليسَ فوقَهُ أحدٌ، يقالُ: صمدتُ إليهِ أصمدُ إذا قصدتُ إليهِ، إلا أنَّ في الصفةِ معنى التعظيمِ كيفَ تصرفتِ الحالُ))[1].

إنَّ الشيخ في بيانه للآية الكريمة يؤكد على أهم ما ورد من معانٍ لهذه الصفة التي يجب أنْ يكون المعبود عليها، وفي كُلِّ الأحوال والأقوال فإنَّ المعاني المتكثرة له توحي إلى مقامه وعظمته التي تليق به سبحانه.

٢- قال الفخر الرازي بتفصيلٍ في بيان ذلك: ((فيهِ مسائلُ: المسألةُ الأولى: ذكروا في تفسير ﴿الصَّمَدُ﴾ وجهينِ، الأول: إنَّهُ فعلٌ بمعنى مفعولٍ، من صمدَ إليهِ إذا قصدَهُ، وهو السيِّدُ المصمودُ إليهِ في الحوائجِ .... والدليلُ على صحةِ هذا التفسيرِ ما روى ٱبنُ عباسٍ: "إنَّهُ لَمَّا نزلتْ هذهِ الآيةُ قالوا: ما الصمدُ؟ قال عليه السلام: هو السيِّدُ الذي يصمدُ إليهِ في الحوائجِ" وقالَ الليثُ: صمدتُ صمدَ هذا الأمرُ، أي قصدتُ قصدَهُ. والقول الثاني: إنَّ الصمدَ هو الذي لا جوفَ له، ومنه يقالُ لسدادِ القارورةِ الصِّمَادُ، وشيءٌ مصمدٌ أي صلبٌ ليسَ فيهِ رخاوةٌ.... وٱعلمْ أَنَّهُ قد ٱستدلَّ قومٌ من جُهَّالِ المشبِّهَةِ بهذهِ الآيةِ في أَنَّهُ تعالى

(١) التبيان في تفسير القرآن ١٠/ ٤٣٠-٤٣١.

جسمٌ، وهذا باطلٌ؛ لأنَّا بَيَّنَّا أنَّ كونَهُ أحدًا ينافي جسمًا، فمقدمةُ هذا الآيةِ دالةٌ على أنَّهُ لا يمكنُ أنْ يكونَ المرادُ مِنَ الصمدِ هذا المعنى؛ ولأنَّ الصمدَ بهذا التفسيرِ صفةُ الأجسامِ المتضاغطةِ، وتعالى اللهُ عن ذلكَ، فإذنْ يجبُ أنْ يحملَ ذلكَ على مجازِهِ؛ وذلكَ لأنَّ الجسمَ الذي يكونُ كذلكَ يكونُ عديمَ الانفعالِ والتأثُّرِ عن الغيرِ، وذلكَ إشارةٌ إلى كونِهِ سبحانَهُ واجبًا لذاتِهِ، ممتنعَ التغيُّرِ في وجودِهِ وبقائِهِ وجميعِ صفاتِهِ، فهذا ما يتعلقُ بالبحثِ اللغويِّ في هذهِ الآيةِ، وأمَّا المفسرونَ فقد نقلَ عنهم وجوهٌ، بعضُها يليقُ بالوجهِ الأولِ وهو كونَهُ تعالى سيِّدًا مرجوعًا إليهِ في دفعِ الحاجاتِ، وهو إشارةٌ إلى الصفاتِ الإضافيَّةِ، وبعضُها بالوجهِ الثاني وهو كونَهُ تعالى واجبَ الوجودِ في ذاتِهِ وفي صفاتِهِ [1] ممتنعَ التغيُّرِ فيهما، وهو إشارةٌ إلى الصفاتِ السلبيَّةِ، وتارةً يفسرونَ الصمدَ بما يكون جامعًا للوجهينِ))[2].

إنَّ الرازي يحاول التأكيد على أنَّ هذه الصفة للباري لها علاقة وثيقة بتزهيه تعالى عن الجسمية وما يتعلق بها من صفات المخلوقين، ثم يستعرض –

(١) يقسم علماء الكلام الوجود على أقسام ثلاثة، واجب الوجود، وممكن الوجود، وممتنع الوجود، ويطلق واجب الوجود على الله تعالى وهو مصدر الوجود لكل الموجودات، المستغني في وجوده عن المؤثر، والممكن هو الموجود بغيره. للتفصيل ينظر: مناهج اليقين في أصول الدين ص٤٧.

(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٦٥

ثم يذكر الرازي ثمانية وجوه للنوع الأول وهو كونَهُ تعالى سيِّدًا مرجوعًا إليهِ في دفعِ الحاجاتِ، وذكر ثمانية عشر وجهًا للنوع الثاني وهو كونَهُ تعالى واجبَ الوجودِ في ذاتِهِ وفي صفاتِهِ، ثم ذكر ما يتعلق بالوجه الثالث وهو كونه جامعًا للوجهينِ. ينظر: التفسير الكبير ١٣/ ١٦٥-١٦٦.

كما هو حاله في تفسيره- جميع أو أغلب الأقوال التي يمكن إيرادها في المسألة، مع مناقشتها تارة، ومجرد عرضها تارة أخرى، وإنْ كان قد ذكر مسألة عقائدية مهمة فيما يتعلق بالصفات الإضافية على ذاته على ما يؤمن به، والمسألة فيها نقاش عميق بين الأعلام، ورأي علماء الإمامية أنَّ صفاته عين ذاته لا زائدة عليه.

ثم بيَّن الرازي أهمية الآية الكريمة في الاستدلال على وحدانيته ونفي كُلِّ ما لا يليق به، بما يوافق الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام فقال: ((المسألة الثانية: قوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ يقتضي أنْ لا يكونَ في الوجودِ صمدٌ سوى الله، وإذا كانَ الصمدُ مفسَّرًا بالمصمودِ إليهِ في الحوائجِ، أو بما لا يقبلُ التغيُّرَ في ذاتِه لزمَ أنْ لا يكونَ في الوجودِ موجودٌ هكذا سوى الله تعالى، فهذهِ الآيةُ تدلُّ على أنَّهُ لا إلهَ سوى الواحد، فقوله: ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾ إشارةٌ إلى كونِهِ واحدًا، بمعنى أنَّهُ ليسَ في ذاتِهِ تركيبٌ، ولا تأليفٌ بوجهٍ من الوجوهِ، وقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ إشارةٌ إلى كونِهِ واحدًا، بمعنى نفيِ الشركاءِ والأندادِ والأضدادِ))[1].

٣- قال السيد الطباطبائي (ت١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م): ((الأصلُ في معنى الصمدِ القصدُ، أو القصدُ مع الاعتمادِ، يقال: صمدَهُ يصمدُهُ صمدًا من بابِ نَصَرَ، أي قصدَهُ، أو قصدَهُ معتمدًا عليهِ، وقد فَسَّروا الصمدَ -وهو صفة- بمعاني متعددةٍ، مرجعُ أكثرِها إلى أنَّهُ السيِّدُ المصمودُ إليهِ، أي المقصودُ في الحوائجِ، وإذا أطلقَ في الآيةِ ولم يقيَّدْ بقيدٍ فهوَ المقصودُ في الحوائجِ على الإطلاقِ.

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٦٦.

وإذا كانَ اللهُ تعالى هو الموجِدُ لكُلِّ ذي وجودٍ، مما سواهُ يحتاجُ إليهِ فيقصدُهُ كُلُّ ما صدقَ عليهِ أنَّهُ شيءٌ غيرُهُ، في ذاتِهِ، وصفاتِهِ، وآثارِهِ، قالَ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (١)، وقال وأطلق: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(٢) فهو الصمدُ في كُلِّ حاجةٍ في الوجودِ، لا يقصدُ شيئًا إلا وهو الذي ينتهي إليهِ قصدُهُ، وينجحُ به طلبتُهُ، ويقضي به حاجتُهُ.

و من هنا يظهرُ وجهَ دخولِ اللامِ في الصمدِ، وأنَّهُ لإفادةِ الحصرِ، فهو تعالى وحدهُ الصمدُ على الإطلاقِ، وهذا بخلافِ أحدٍ في قوله ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾ فإنَّ أحدًا بما يفيدُهُ من معنى الوحدةِ الخاصةِ لا يطلقُ في الإثباتِ على غيرهِ تعالى، فلا حاجةَ فيهِ إلى عهدٍ أو حصرٍ.... والآيتانِ مع ذلكَ تصفانهُ تعالى بصفةِ الذاتِ وصفةِ الفعلِ جميعًا، فقوله: ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾ يصفهُ بالأحديَّةِ التي هي عينُ الذاتِ، وقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ يصفهُ بانتهاءِ كُلِّ شيءٍ إليهِ، وهو من صفاتِ الفعلِ))(٣).

إنَّ السيد الطباطبائي في بيانه لهذه الصفة يذكر ما ورد من كلمات العلماء اللغويين في معنى (الصمد)، للإفادة من ذلك في معرفة المراد من هذا المصطلح، ومدى موافقته مع الروايات الواردة في بيان معانيه، وكان أكثر المعاني ملاءمة هو ما ورد في الرواية التفسيرية، فقد ذكر بعد تفسير السورة المباركة ما ورد من روايات متعددة وردت عن الأئمة عليهم السلام في تفسير (الصمد)

(١) سورة الأعراف: الآية٥٤.

(٢) سورة النجم: الآية٤٢.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ٣٨٨.

ورواية الإمام الجواد عليه السلام المتقدمة فقال: ((أقولُ: وفي تفسيرِ الصمدِ معانٍ أُخَر مرويةٌ عنهم عليهم السلام ..... والأصلُ في معنى الصمدِ هو الذي رويناهُ عن أبي جعفرٍ الثاني عليه السلام؛ لِمَا في مادتهِ لغةً في معنى القصدِ، فالمعاني المختلفةُ المنقولةُ عنهم عليهم السلام من التفسيرِ يلازمُ المعنى، فإنَّ المعاني المذكورةَ لوازمٌ كونَهُ تعالى مقصوداً، يرجعُ إليهِ كُلُّ شيءٍ في كُلِّ حاجةٍ، فإليهِ ينتهي الكُلُّ من دونِ أنْ تتحققَ فيهِ حاجةٌ))[1].

من خلال ما تقدم تكون الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام واضحة البيان والبرهان على بيان المراد من تفسير (الصمد)، وعلاقة ذلك بإثبات وحدانية الله تعالى، وإنَّ كُلَّ ما ورد من أقوال المفسرين يؤكد ذلك.

(١) الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ٣٩١.

- **الآية الثامنة:**

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ بَعَثَ فِيْ الْأُمِّيِّيْنَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِيْ ضَلَالٍ مُبِيْنٍ﴾[1].

* روى الشيخ الصدوق عن جعفر بن محمد [2]، قال: ((سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ ابْنَ عَلِيِّ الرِّضَا عليهما السلام، قُلْتُ: يَزْعَمُوْنَ أَنَّهُ سُمِّيَ الْأُمِّيَّ لِأَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ. فَقَالَ عليه السلام: كَذَبُوْا، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ الله! أَنَّى ذَلِكَ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُوْلُ فِيْ مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿هُوَ الَّذِيْ بَعَثَ فِيْ الْأُمِّيِّيْنَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فَكَيْفَ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ مَا لَا يُحْسِنُ؟! وَالله لَقَدْ كَانَ رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ بِاثْنَيْنِ وَسَبْعِيْنَ -أَوْ قَالَ بِثَلَاثَةٍ وَسَبْعِيْنَ- لِسَانًا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْأُمِّيَّ لِأَنَّهُ لَمَّا نَ مِنْ أَهْلِ مكَّةَ، وَمَكَّةُ مِنْ أُمَّهَاتِ الْقُرَى، وَذَلِكَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [3]))[4].

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) ورد في سند الرواية عن الشيخ الصدوق جعفر بن محمد الصوفي، وهو غير صحيح؛ إذ لا يوجد من الرواة بهذا الاسم، بل هو الصيرفي كما تبيَّن لي ذلك من خلال متابعة الرواة عنه مثل أحمد بن محمد البرقي الوارد في سند الرواية، وكذلك يروي عنه أحمد بن محمد ابن عيسى وهو من سند رواة هذه الرواية.
وهو ((جعفر بن محمد بن يونس الأحول الصيرفي، ثقة، من أصحاب الإمام الجواد عليه السلام)). معجم رجال الحديث ٥/ ٩٤-٩٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٤) معاني الأخبار ص٥١.

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبيِّن مسألة من المسائل المتعلقة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في كونه هل كان يقرأ ويكتب أم لا، وهذه الرواية واضحة البيان في أنه كان يجيد ذلك بأكثر من لسان، ولكن على رغم ذلك فقد ٱختلف العلماء في ذلك، وإنَّ دراسة هذا الأمر له علاقة بتحدي القرآن الكريم المشركين وإعجازه، فقد تحدى المعاندين للإيمان بالرسالة الإسلامية صراحة، من خلال إيتائه بمعجزات متعددة تدل على صدق دعوى نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والتي كان من أعظمها القرآن الكريم، وما تضمنه من آيات بلاغية عظيمة لها أثر كبير في نفوس سامعيها، تصدر من رجل لم يدرس عند أحد من قبل، ولم يكن يقرأ ويكتب على رأي كثير من العلماء والمحققين، وفيه يكمن سِرٌّ إعجازي ذاتي آخر، فالتأريخ يحدثنا أنه كان أُمِّيًّا، وكانت تربيته الأولى في البادية، ولم تكن مكة آنذاك من مراكز العلم، ومدارس العلماء، وأنَّ عدد الذين كانوا يكتبون في الجزيرة العربية قليل جدًّا، ومنهم يعرف القراءة ولا يعرف الكتابة، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد جاء بكتاب تضمن تلك البلاغة العربية الفائقة، التي أعجزت الفحول من بلغاء وشعراء العرب، حتى قال كبير معانديهم الوليد بن المغيرة عندما ٱستمع للقرآن وهو يريد الإساءة إليه: ((إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُوْ، وَلَا يُعْلَى))[1]، وقال السيد هبة الدين الشهرستاني (ت١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م) تعليقًا على هذه المقولة: ((هَذَا أَوَّلُ تَقْرِيْظٍ نَالَهُ الْقُرْآنُ مِنْ خُبَرَاءِ عَصْرِهِ وَمِصْرِهِ، وَلَعَمْرِيْ إِنَّهَا

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ٦/ ١٩٢ ، البرهان في علوم القرآن ٢/ ٦٩.

شَهَادَةٌ حَافِلَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِأَنَّ الْمُشَدَّدَةَ سِتُّ مَرَّاتٍ، كَشَهَادَاتٍ سِتٍّ قَيِّمَةٍ)) [١]، وقد ورد أنَّ قريشًا أتت الوليد بعد أنْ عرفت أنه استمع إلى القرآن وتأثَّر به: ((قَالَ أَبُوْ جَهْلٍ: فَقُلْ فِيْهِ قَوْلاً يُعْلِمُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لِمَا قَالَ، وَأَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ. قَالَ: فَمَا أَقُوْلُ فِيْهِ، فَوَاللهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّيْ، وَلَا أَعْلَمُ بِرِجْزِهِ مِنِّيْ، وَلَا بِقَصِيْدِهِ، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يَشْبَهُ الَّذِيْ يَقُوْلُ شَيْئًا مِنْ هَذَا))[٢].

فالحديث عن أمِّيَّة النبي إنما هو حديث عن جانب مشرق من جوانبه الإعجازية التي كانت العناية الإلهية ظاهرة فيها، وليس عن جانب غير تكاملي في شخصيته (صلوات الله عليه)، ونحاول بيان ما يتعلق بالأمر إيجازًا من خلال أمرين أساسيتين:

الأول: هل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ويكتب قبل البعثة أم لا؟

الثاني: هل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ويكتب بعد البعثة أم لا؟

- **الأول: هل كان النبي يقرأ ويكتب قبل البعثة أم لا.**

إنَّ القراءة والكتابة المتعلقة بشخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنَّما تتعلق بكيفية إيصال تلك الرسالة بطريقة إعجازية، وقد ذهب كثير من العلماء كما تقدم إلى أنَّه لم يكن يقرأ ويكتب قبل البعثة حصرًا، وفي ذلك كمال الحجة الإلهية على المعاندين لدعوته، ونعرض بعض تلك الأقوال النافية لهذه الصفة مع بيان أدلتهم:

---

(١) المعجزة الخالدة ص٤٣.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٦/ ٤٨٨ ، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠/ ١٧٨.

لقد ٱستند القائلون بذلك إلى بعض الآيات المباركة التي توحي إلى ذلك صراحة أو ضمنًا، ومن أهم تلك الآيات وأشهرها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُوْنَ﴾[1]. ومما قاله المفسرون في الآية المباركة:

١- قال الطبري: ((يَعْنِيْ وَما كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ تَقْرَأُ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِيْ أنزَلْتُهُ إِلَيْكَ، ولَمْ تَكُنْ تكْتُبُ بِيَمِيْنِكَ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ أُمِّيًّا، وَلَوْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوْحَى إِلَيْكَ تَقْرَأُ الْكِتَابَ، أَوْ تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ، إِذَنْ لَشَكَّ الْمُبْطِلُوْنَ الْقَائِلُوْنَ إِنَّهُ سَجَعٌ وَكَهَانَةٌ، وَإِنَّهُ أَسَاطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ))[2].

٢- قال الزمخشري: ((وَأَنْتَ أُمِّيٌّ مَا عَرَفَكَ أَحَدٌ قَطْ بِتِلَاوَةِ كِتَابٍ وَلَا خَطٍّ ﴿إِذًا﴾ لَوْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَيْ مِنَ التِّلَاوَةِ وَالْخَطِّ ﴿لَارْتَابَ الْمُبْطِلُوْنَ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالُوْا: الَّذِيْ نَجِدَهُ فِيْ كُتُبِنَا أُمِّيٌّ لَا يكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ وَلَيْسَ بِهِ. أَوْ لَارْتَابَ مُشْرِكُوْ مَكَّةَ وَقَالُوْا: لَعَلَّهُ تَعَلَّمَهُ أَوْ كَتَبَهُ بِيَدِهِ ....فَكَأَنَّهُ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْمُبْطِلُوْنَ فِيْ كُفْرِهِمْ بِهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ أُمِّيًّا لَارْتَابُوْا أَشَدَّ الرَّيْبِ، فَحِيْنَ لَيْسَ بِقَارِىءٍ كَاتِبٍ فَلَا وَجْهَ لِارْتِيَابِهِمْ .... فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿بِيَمِيْنِكَ﴾ قُلْتُ: ذَكَرَ الْيَمِيْنَ وَهِيَ الْجَارِحَةُ الَّتِيْ يُزَاوِلُ بِهَا الْخَطَّ زِيَادَةُ تَصْوِيْرٍ لِمَا نَفَى عَنْهُ مِنْ كَوْنِهِ كَاتِبًا. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ فِيْ الْإِثْبَاتِ رَأَيْتُ الْأَمِيْرَ يَخُطُّ هَذَا الْكِتَابَ بِيَمِيْنِهِ كَانَ أَشَدَّ لِإِثْبَاتِكَ أَنَّهُ تَوَلَّى كِتْبَتَهُ، فَكَذَلِكَ النَّفْيُ))[3].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن ٢٦/ ٤٨١-٤٨٢ ، وذكر بعض الروايات التي وردت في أمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسنده عن ٱبن عباس، وقتادة، وٱبن مجاهد.

(٣) تفسير الكشاف ٣/ ٤٦٢-٤٦٣.

٣- قال الشيخ الطبرسي: ((وَالمَعْنَى أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ قَبْلَ أَنْ يُوْحَى إِلَيْكَ بِالْقُرْآنِ، وَمَا كُنْتَ أَيْضًا تَكْتُبُهُ بِيَدِكَ، وَلَوْ كُنْتَ تَقْرَأُ كِتَابًا أَوْ تَكْتُبُهُ لَوَجَدَ الْمُبْطِلُوْنَ طَرِيْقًا إِلَى ٱكْتِسَابِ الشَّكِّ فِيْ أَمْرِكَ، وَإِلْقَاءِ الرِّيْبَةِ لِضَعْفَةِ النَّاسِ فِيْ نُبُوَّتِكَ، وَلَقَالُوْا إِنَّمَا تَقْرَأُ عَلَيْنَا مَا جَمَعْتَهُ مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِيْنَ، فَلَمَّا سَاوَيْتَهُمْ فِيْ الْمَوْلِدِ وَالْمَنْشَأِ ثُمَّ أَتَيْتَ بِمَا عَجَزُوْا عَنْهُ، وَجَبَ أَنْ يَعْلَمُوْا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ الله تَعَالَى وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِكَ))[1].

إنَّ أقوال الأعلام التي تقدمت في نفي القراءة والكتابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تستند إلى علة أساسية مهمة، ولها آثار في الدعوة ونجاحها، وهو دفع الشبهات المحتملة من المعاندين للدعوة، حيث القرآن هو المعجزة الفصل التي أتاهم بها، والمعاندون على ٱختلافهم فإنْ كانوا ممن لا يؤمن بديانة فهو يعرف نشأة النبي وسيرته فيهم، حيث الأمية الكبيرة بين الناس في مكة، ولم يذكر التأريخ نصًّا واحدًا يمكن لهم أن يستندوا إليه في أنَّه قد تعلم عند أحد، على رغم أنهم قد ذكروا تفاصيل دقيقة في سيرته، وأما إنْ كانوا من أصحاب الديانات السابقة فأُمِّيَّته تنفي أي ٱدعاء أنَّه قد تعلم شيئًا من رهبان النصارى، أو أحبار اليهود ما يتعلق بالموضوعات الغيبية التي تحدث عنها القرآن الكريم، وهذا هو كمال التصديق بالرسالة، إذًا فمقام عدم القراءة والكتابة فضل وكمال، وليس عيبًا أو نقصًا.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٥٠.

وقد ذكر القرطبي (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٢م) أقوالًا متعددة تتعلق بما تقدم حول القراءة والكتابة، ولكن يظهر أنَّه يرجح عدم قراءة وكتابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مطلقًا، قبل البعثة وبعدها، وفيه كمال الإعجاز الإلهي، فقال بعد بيانه للآراء والروايات التي ورد فيها أنه قد كتب: ((وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِيْنَ مَنْ قَالَ هِيَ آيَةٌ خَارِقَةٌ [عِنْدَمَا مَحَا النَّبِيُّ كَلِمَةً وَكَتَبَ غَيْرَهَا فِيْ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ]، فَيُقَالُ لَهُ: كَانَتْ تكُوْنُ آيةً لَا تنْكَرُ لَوْلَا أَنَّهَا مُنَاقِضَةٌ لِآيَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ كَوْنَهُ أُمِّيًّا لَا يكْتُبُ، وَبِكَوْنِهِ أُمِّيًّا فِيْ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ قَامَتِ الْحُجَّةُ، وَأُفْحِمَ الْجَاحِدُوْنَ، وَانْحَسَمَتِ الشُّبْهَةُ، فكَيْفَ يَطلْقُ اللهُ تعَالَى يدَهَ فُيكَتْبُ وتَكُوْنُ آيَةً، وَإِنَّمَا الْآيَةُ أَلَّا يكْتُبَ، وَالْمُعْجِزَاتُ يَسْتَحِيْلُ أَنْ يَدْفَعَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِنَّمَا مَعْنَى كَتَبَ وَأَخَذَ الْقَلَمَ أَيْ أَمَرَ مَنْ يكْتُبَ بِهِ مِنْ كُتَّابِهِ .... قلت: هذا [أَيْ أَنْ يُرْزَقَ عِلْمَ هَذَا وَيُمْنَعَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ] وَهُوَ الصَّحِيْحُ فِيْ الْبَابِ، أَنَّهُ مَا كَتَبَ وَلَا حَرْفًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا أَمَرَ مَنْ يكْتُبُ، وَكَذَلِكَ مَا قَرَأَ وَلَا تهَجَّى))[1].

- **الثاني: هل كان النبي يقرأ ويكتب بعد البعثة أم لا.**

إنَّ كثيرًا من الأعلام الذين قالوا بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يقرأ ولا يكتب قبل البعثة، لأجل الغاية التي تقدمت من كمال الإعجاز، قد صرَّحوا بعلمه بهما بعد البعثة؛ حيث الحاجة إليهما، فضلاً عن انتفاء الشك والارتياب لدى المعاندين في أنَّ ما جاء به ليس من تعلمه عند أحد، ونذكر من ذلك كلمات ثلاث من أعلام الطائفة:

(١) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري ١٣/ ٣٥٢-٣٥٣.

١- قال الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ/ ١٠٢٢م): ((إِنَّ النَّبِيَّ لَوْ كَانَ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَا يَعْرِفُهَا لَكَانَ مُحْتَاجًا فِي فَهْمِ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْكُتُبُ مِنَ الْعُقُودِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى بَعْضِ رَعِيَّتِهِ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُحْوِجَهُ اللهُ فِي بَعْضِ مَا كَلَّفَهُ الْحُكْمُ فِيهِ إِلَى بَعْضِ رَعِيَّتِهِ لَجَازَ أَنْ يَحْوِجَهُ فِي جَمِيعِ مَا كَلَّفَهُ الْحُكْمُ فِيهِ إِلَى سُوَاهُ، وَذَلِكَ مُنَافٍ لِصِفَاتِهِ، وَمُضَادٌّ لِحِكْمَةِ بَاعِثِهِ، فَثَبَتَ أَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَشَيْءٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وَمُحَالٌ أَنْ يُعَلِّمَهُمُ الْكِتَابَ وَهُوَ لَا يُحْسِنُهُ، كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يُعَلِّمَهُمُ الْحِكْمَةَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا .... وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾، فَنَفَى عَنْهُ إِحْسَانَ الْكِتَابَةِ وَخَطِّهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ خَاصَّةً، فَأَوْجَبَ بِذَلِكَ إِحْسَانَهُ لَهَا بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَلَوْلَا أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَمَا كَانَ لِتَخْصِيصِهِ النَّفْيَ مَعْنًى يُعْقَلُ، وَلَوْ كَانَ حَالُهُ صلى الله عليه وآله وسلم فِي فَقْدِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابَةِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ كَحَالِهِ قَبْلَهَا لَوَجَبَ إِذَا أَرَادَ نَفْيَ ذَلِكَ عَنْهُ أَنْ يَنْفِيَهُ بِلَفْظٍ يُفِيدُهُ لَا يَتَضَمَّنُ خِلَافَهُ))[١].

إنَّ تفسير الشيخ قائم على الدليل العقلي الذي له أثر في بيان علة بعث الأنبياء ومقامهم، وحاجة الغير إليهم، مما له أثر في كمالهم، حيث صفة العلمية على سواهم، فضلًا عن الدليل النقلي في النص القرآني الذي ينفي عنه التعلم قبل النبوة خاصة، وأما بعدها فلا ينطبق عليه، وفي ذلك موافقة للرواية

(١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، محمد بن محمد بن النعمان ص١١٢.

التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام الدالة على علمه صلى الله عليه وآله وسلم بأكثر من لسان مما يؤكد صفات الكمال التي يجب أنْ يكون عليها.

٢- ورد عن الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) قوله: ((هَذِهِ الْآيَةُ [وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ] تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم مَا كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، فَأَمَّا بَعْدَ النُّبُوَّةِ فَالَّذِيْ نَعْتَقِدُهُ فِيْ ذَلِكَ التَّجْوِيْزُ؛ لِكَوْنِهِ عَالِمًا بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَالتَّجْوِيْزُ لِكَوْنِهِ غَيْرَ عَالِمٍ بِهِمَا مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِيْ أَنَّ النَّفْيَ قَدْ تَعَلَّقَ بِمَا قَبْلَ النُّبُوَّةِ دُوْنَ مَا بَعْدَهَا، وَلَأَنَّ التَّعْلِيْلَ فِيْ الْآيَةِ يَقْتَضِيْ اخْتِصَاصَ النَّفْيِ بِمَا قَبْلَ النُّبُوَّةِ؛ لِأَنَّ الْمُبْطِلِيْنَ إِنَّمَا يَرْتَابُوْنَ فِيْ نُبُوَّتِهِ صلى الله عليه وآله وسلم لَوْ كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، فَأَمَّا بَعْدَ النُّبُوَّةِ فَلَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالرِّيْبَةِ وَالتُّهْمَةِ، فَيَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ قَدْ تَعَلَّمَهَا مِنْ جَبْرَائِيْلَ عليه السلام بَعْدَ النُّبُوَّةِ))[1].

إنَّ القراءة الدقيقة لما يراه السيد الشريف المرتضى توحي إلى القول بأنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يُحسن ذلك بعد بعثته الشريفة بخلاف ما قبلها، ولكنه لا يجزم بذلك صراحة كما تقدم من الجزم في كلام شيخه المفيد، لوجود بعض الإشكالات التي قد ترد في الموضوع ومنها من هو معلمه لذلك؟ ولم يذكر لنا التأريخ أنَّه قد تعلم عند أحد! ولو كان قد ذكر لاشتهر تمامًا؛ لعناية المسلمين بتدوين سيرته، وخصوصًا في مثل هذه الموضوعات المهمة، لذلك رجح المرتضى احتمال تعلمه من جبرئيل عليه السلام، وهو أمر وارد حيث أنَّه عَلَّمه ما هو أعظم من القراءة والكتابة.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ٤/ ٣٥٠.

٣- قال الشيخ الطوسي: ((لَمْ تَكُنْ تُحْسِنِ الْقِرَاءَةَ قَبْلَ أَنْ يُوْحَى إِلَيْكَ بِالْقُرْآنِ، وَمَا كُنْتَ أَيْضًا تَخُطُّ بِيَمِيْنِكَ، وَفِيْهِ اخْتِصَارٌ وَتَقْدِيْرُهُ وَلَوْ كُنْتَ تَتْلُوْ الْكِتَابَ وَتَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ ﴿إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُوْنَ﴾ .... وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ [عدم القراءة والكتابة]، بَلْ فِيْهَا نَفْيُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ الْكِتَابَ، وَقَدْ لَا يَكْتُبُ الْكِتَابَ مَنْ يُحْسِنُهُ، كَمَا لَا يَكْتُبُ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ....وَلَوْ أَفَادَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ قَبْلَ الْإِيْحَاءِ، لَكَانَ دَلِيْلُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُحْسِنُهَا بَعْدَ الْإِيْحَاءِ إِلَيْهِ؛ لِيَكُوْنَ فَرْقًا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ))[١].

إنَّ الشيخ الطوسي قدس سره له رأي خاص في الموضوع كما تبيَّن، حيث عدم الجزم بأنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يقرأ ويكتب قبل البعثة من خلال هذه الآية المباركة، وقد ذكر ذلك صريحًا، على الرغم من تأييده لها بعد البعثة، وفيه أكثر الأقوال موافقة للرواية التفسيرية عن الإمام الجواد عليه السلام في هذا المورد، وإنْ كان قد ذكر ما تقدم من قولَيْ المفيد والمرتضى في موضع آخر، فقال في بيان صفات القاضي: ((وَالَّذِيْ يَقْتَضِيْهِ مَذْهَبُنَا أَنَّ الْحَاكِمَ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ عَالِمًا بِالْكِتَابَةِ، وَالنَّبِيُّ "عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ" عِنْدَنَا كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَإِنَّمَا لَمْ يُحْسِنْهَا قَبْلَ الْبِعْثَةِ))[٢].

ولأهمية الموضوع أختم بما ورد عن الأعلام المحققين المتأخرين في هذه الأمر، حيث قال السيد هبة الدين الشهرستاني في بيان وجوه إعجاز القرآن: ((لَيْسَ شَيْءٌ مِمَّا حَوْلَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أَوْضَحُ مِنْ تَأْرِيْخِهِ، وَلَا نَاحِيَةٌ مِنْ تَأْرِيْخِهِ

(١) التبيان في تفسير القرآن ٨/ ٢١٦.

(٢) المبسوط في فقه الإمامية، محمد بن الحسن ٨/ ١٢٠.

أَوْضَحُ مِنْ أُمِّيَّتِهِ، بِمَعْنَى نَفْيِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ عَنْهُ)) [١]، وقال السيد الطباطبائي: ((وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِيْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ الْبَاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ أَيْ عُلِّمَ الْقِرَاءَةُ أَوِ الْكِتَابَةُ وَالْقِرَاءَةُ بِوَاسِطَةِ الْقَلَمِ، وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ أَوِ اسْتِئْنَافِيَّةٌ، وَالْكَلَامُ مَسُوْقٌ لِتَقْوِيَةِ نَفْسِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وَإِزَالَةِ الْقَلَقِ وَالاضْطِرَابِ عَنْهَا، حَيْثُ أُمِرَ بِالْقِرَاءَةِ وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ)) [٢]، وقال السيد أبو القاسم الخوئي: ((صَرَّحَ الْكِتَابُ فِيْ كَثِيْرٍ مِنْ آيَاتِهِ الْكَرِيْمَةِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله وسلم أُمِّيٌّ، وَقَدْ جَهَرَ النَّبِيُّ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ بَيْنَ مَلَأِ قَوْمِهِ وَعَشِيْرَتِهِ الَّذِيْنَ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَتَرَبَّى فِي أوساطهم فلم ينكر عليه أحد هذه الدعوى...)) [٣].

وللشيخ محمد حسن آل ياسين (ت١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م) تفصيل في المسألة والأقوال التي وردت في ذلك، مع بيان أقوال اللغويين في تحقيق لفظ (الأمي) [٤].

من خلال ما تقدم تكون الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام خاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد النبوة، وإنَّ كُلَّ ما ورد من أقوال المفسرين يؤكد ذلك.

(١) المعجزة الخالدة: ٣٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ٣٧١.

(٣) البيان في تفسير القرآن ص٥٥.

(٤) ينظر: في رحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ص١١٥-١٢٢.

- **الآية التاسعة:**

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

* روى علي بن إبراهيم القمي ((عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِيْ عُمَيْرٍ [٢] قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ [الإمام الجواد] عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ قَالَ عليه السلام: إِمَّا آخِذٌ فَشَاكِرٌ، وَإِمَّا تَارِكٌ فَكَافِرٌ))[٣].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبيِّن مسألة من المسائل المهمة المتعلقة بتكريم الله تعالى لعباده بصورة عامة، وبيان المنهج المتبع للتكامل الإنساني، من خلال انقياد الإنسان لتعاليم الشريعة المقدسة التي تهدف إلى سعادته في الدنيا والآخرة، بطاعته تعالى، فضلًا عن بيان الرواية التفسيرية في تصنيف العباد تجاه الهداية الإلهية، ونحاول من خلال الآية المباركة والرواية الشريفة بيان موضوعين بإيجاز، يتناول الأول مصطلح الهداية وما يتعلق به، والآخر أقوال المفسرين في الآية المباركة.

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٣.

(٢) محمد بن أبي عمير زياد بن عيسى، كانَ من أوثقِ الناسِ عندَ الخاصةِ والعامةِ، وأنسكِهِم نسكًا، وأورعِهِم وأعبدِهِم، وأدركَ من الأئمةِ ثلاثةً: أبا إبراهيم موسى عليه السلام ولم يروِ عنه، وأدركَ الرضا عليه السلام وروى عنه، والجوادَ عليه السلام)). معجم رجال الحديث ١٥/ ٢٩٣.

(٣) تفسير القمي ص ٧٠٦.

- **الأول: المراد من الهداية.**

لقد ورد لمصطلح الهداية معانٍ متعددة ذكرها الأعلام في مؤلفاتهم نذكر منها بإيجاز ما يأتي:

* قال الراغب الأصفهاني: ((وَهِدَايَةُ الله تَعَالى لِلْإِنْسَانِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

الأول: الْهِدَايَةُ الَّتِيْ عَمَّ بِجِنْسِهَا كُلَّ مُكَلَّفٍ مِنَ الْعَقْلِ وَالْفِطْنَةِ، وَالْمَعَارِفِ الضَّرُوْرِيَّةِ الَّتِيْ أَعَمُّ مِنْهَا، كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ فِيْهِ حَسْبَ ٱحْتِمَالِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿رَبُّنَا الَّذِيْ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1].

الثاني: الْهِدَايَةُ الَّتِيْ جَعَلَ لِلنَّاسِ بِدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى أَلْسَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمَقْصُوْدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2].

الثالث: التَّوْفِيْقُ الَّذِيْ يَخْتَصُّ بِهِ مَنِ ٱهْتَدَى، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[3]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوْا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4].

الرابع: الْهِدَايَةُ فِيْ الْآخِرَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ: ﴿سَيَهْدِيْهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[5].

وَهَذِهِ الْهِدَايَاتُ الْأَرْبَعُ مُتَرَتِّبَةٌ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ تَحْصَلْ لَهُ الْأُوْلَى لَا تَحْصَلُ لَهُ الثَّانِيَةُ،

---

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) سورة السجدة: الآية ٢٤.

(٣) سورة محمد: الآية ١٧.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٥) سورة محمد: الآيتان ٥-٦.

بَلْ لَا يَصُحُّ تَكْمِلَتُهُ، وَمَنْ لَمْ تَحْصَلْ لَهُ الثَّانِيَةُ لَا تَحْصَلُ لَهُ الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ))[١].

* وقال الشيخ الطريحي: ((وَالهُدَى الرَّشَادُ وَالدَّلَالَةُ وَالْبَيَانُ، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ. وَالْهُدَى هُدَيَانِ: هُدَى دِلَالَةٍ، فَالْخَلْقُ بِهِ مَهْدِيُّوْنَ، وَهُوَ الَّذِيْ تَقْدِرُ عَلَيْهِ الرُّسُلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٢] فَأَثْبَتَ لَهُ الْهُدَى الَّذِيْ مَعْنَاهُ الدِّلَالَةُ وَالدَّعْوَةُ وَالْبَيِّنَةُ. وَتَفَرَّدَ هُوَ تَعَالَى بِالْهُدَى الَّذِيْ مَعْنَاهُ التَّوْفِيْقُ وَالتَّأْيِيْدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِيْنَ﴾ [٣]))[٤].

فالهداية ظاهرة في أنَّ المقصود منها البيان والإرشاد لما فيه الصلاح والكمال والرشاد، إلا إذا ٱستعملت لغير ذلك مجازًا لا حقيقة كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوْا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوْا يَعْبُدُوْنَ * مِنْ دُوْنِ اللهِ فَاهْدُوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيْمِ﴾ [٥]، فاستعمل لفظ (الهداية)مع الجحيم للتهكُّم [٦] بهم، وقد ٱستعمل لفظ الهداية في القرآن الكريم على أوجه متعددة غير المعنى الاصطلاحي[٧].

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٨٣٥-٨٣٦ (هدي).

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٦.

(٤) مجمع البحرين ١/ ٤٧٣ (هدي).

(٥) سورة الصافات: الآيتان ٢٢-٢٣.

(٦) التهكُّم هو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال، مثل قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ﴾ [الدخان:٤٤]. البرهان في علوم القرآن ٤/ ٨٠.

(٧) لقد ورد أنَّ للهدى في القرآن الكريم ٱثنين وعشرين وجهًا تم بيانه فيه. للتفصيل ينظر: وجوه القرآن، إسماعيل بن أحمد النيسابوري ص٥٦٨- ٥٧٢.

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

ذكر المفسرون آراء متعددة في بيان المراد من الآية المباركة، ونختصر في هذه السطور على مفسرَيْنِ منهم في بيان ذلك:

١- قال الشيخ الطوسي: ((الْمَعْنَى إِمَّا يَخْتَارُ يُحْسِنُ آخْتِيَارَهُ الشُّكْرَ لله تَعَالَى وَالْاعْتِرَافَ بِنَعَمِهِ فَيُصِيْبُ الْحَقَّ، وَإِمَّا أَنْ يَكْفُرَ نِعَمَهُ وَيَجْحَدَ إِحْسَانَهُ فَيَكُوْنَ ضَالًّا عَنِ الصَّوَابِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ مُخَيِّرٌ فِيْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا خَرَجَ ذَلِكَ مَخْرَجَ التَّهْدِيْدِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] .... وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْبَيَانَ عَنْ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمَا فَأَيَّهُمَا آخْتَارَ جُوْزِيَ بِحَسَبِهِ))[2].

إنَّ الشيخ الطوسي قد جعل الهداية في الآية المباركة على سبيل البيان وليس الاختيار، يعنى أنَّ الله تعالى أراد أنْ يبين للإنسان أنَّه قد عرَّفه أنَّ هذا السبيل إما نتيجته الشكر أو الكفر، وفيه تهديد غير ظاهر له، وليس المراد أنَّه أراد الله تعالى من الإنسان أنْ يختار أحد هذين الطريقين وهذا ما أشار إليه بقوله (وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ مُخَيِّرٌ فِيْ ذَلِكَ)، ولكن في الحقيقة إنَّ ما ذهب إليه شيخنا الطوسي رحمه الله قد يكون فيه تكلُّف، وإلا فلا بأس بأنَّ الله تعالى أراد البيان والإنسان في الوقت نفسه عند معرفته ذلك البيان فهو مخيَّر بين هذين الطريقين،

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١٠/ ١٢٣.

مع تهديده تعالى للمخالفين، فالإنسان في الواقع يحتاج إلى مَنْ يهديه السبيل الأكمل لمسيرته الابتلائية في الدنيا؛ ليتعرَّف عليها من جهة، ويختار أيهما أفضل له من جهة أخرى، فيحدد منهجه على وفق ذلك التخيير النفسي، وإلا فإنَّ الله تعالى لا يريد أنْ يعرِّف الإنسان نتيجة هذين الطريقين فقط، بل يريد منه أنْ يختار طريق الصلاح والفلاح والشكر، والابتعاد عن الطريق المقابل لذلك، وإنَّ في ختام كلامه قدس سره (وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْبَيَانَ عَنْ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمَا فَأَيَّهُمَا ٱخْتَارَ جُوْزِيَ بِحَسَبِهِ) ففي هذا إشارة إلى أنَّ الإنسان هو الذي يختار أحدهما، وليس الله تعالى يختار له؛ خوف الوقوع في مشكلة الجبر كما سيأتي.

ثم يعرَّج الشيخ الطوسي على ما يمكن أنْ تستند إليه بعض الفرق الباطلة من خلال القول بأنَّ الآية المباركة فيها إشارة إلى الجبر الإلهي، فيقول: (وَفِيْ الْآيَةِ دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ هَدَى جَمِيْعَ خَلْقِهِالمُكَلَّفِيْنَ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾عَامٌّ فِيْ جُمْلَتِهِمْ، وَذَلِكَ يُبْطِلُ قَوْلَ الْمُجَبِّرَةِ: إِنَّ اللهَ لَمْ يَهْدِالْكَافِرُ بِنَصْبِ الدِّلَالَةِ لَهُ عَلَى طَرِيْقِ الْحَقِّ وَٱجْتِنَابِ الْبَاطِلَ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تَرَكَالشُّكْرَ كَانَ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُتْرَكُ فِيْ بَعْضِ الْأَحْوَالِ عَلَى سَبِيلِ التَّطَوُّعِ؛ لِأَنَّالشُّكْرَ قَدْ يكُونُ تَطَوُّعًا، كَمَايكُوْنُ وَاجِبًا، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرِ اللهُ الْفَاسِقَ؛ لِأَنَّهُ ٱقْتَصَرَ عَلَى أَعْظِمِ الْحَالَيْنِ، وَأَلْحَقَ الْأَدْوَنَ عَلَى التَّبَعِ، وَيَجُوْزُ أَنْ يُدْخِلَ فِيْ الْجُمْلَةِ، وَلَا يُفْرِدَ، فَلَيْسَ لِلْخَوَارِجِ أَنْ يَتَعَلَّقُوْا بِذَلِكَ فِيْ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَالْكُفْرِ وَالْإِيْمَانِ وَاسِطَةٌ))[1].

(١) التبيان في تفسير القرآن ١٠/ ١٢٣.

وإنَّ في كلام المجبرة (لَيْسَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيْمَانِ وَاسِطَةٌ) استنادًا إلى هذه الآية مغالطة وغير صحيح؛ حيث إنَّ الله تعالى ذكر في آية أخرى ذم وعقوبة غير الكافر مع أنَّه في الوقت نفسه غير مؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [1] وغيرها من الآيات، وليس لهم أنْ يتمسكوا بآية واحدة من دون استعراض الآيات الأخرى، فلعلها من المتشابهات التي تحتاج ما يرفع عنها ذلك؛ فتكون من المحكمات، كما في التقسيم الثنائي لآيات القرآن (محكمات ومتشابهات).

٢- قال الفخر الرازي: ((﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ﴾ أَخبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ رَكَّبَهُ وَأَعْطَاهُ الْحَوَاسَّ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، بَيَّنَ لَهُ سَبِيْلَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ .... الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ إِعْطَاءَ الْحَوَاسِّ كَالْمُقَدَّمِ عَلَى إِعْطَاءِ الْعَقْلِ، وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ فِيْ مَبْدَأِ الْفِطْرَةِ خَالِيًا عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ أَعْطَاهُ آلَاتٍ تُعِيْنَهُ عَلَى تَحْصِيْلِ تِلْكَ الْمَعَارِفِ، وَهِيَ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، فَإِذَا أَحَسَّ بِالْمَحْسُوْسَاتِ تَنَبَّهَ لِمُشَارَكَاتٍ بَيْنَهَا وَمُبَايَنَاتٍ، يُنْتَزَعُ مِنْهَا عَقَائِدُ صَادِقَةٌ أَوَّلِيَّةٌ، كَعِلْمِنَا بِأَنَّ النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِّ، وَأَنَّ الْكُلَّ أَعْظَمُ مِنَ الْجُزْءِ، وَهَذِهِ الْعُلُوْمُ الْأَوَّلِيَّةُ هِيَ آلَةُ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ بِتَرْكِيْبَاتِهَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولَاتِ النَّظَرِيَّةِ، فَثَبُتَ أَنَّ الْحِسَّ مُقَدَّمٌ فِيْ الْوُجُوْدِ عَلَى الْعَقْلِ؛ وَلِذَلِكَ قِيْلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا....)) [2].

(١) سورة النساء: الآية ١٤٥.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٧٤١.

إنَّ كلام الرازي في هذه المسألة المتعلقة بهداية الإنسان العاقل وأثر الحواس فيها، فيه من الالتفات اللطيف إلى أصل أو بداية عملية التعلم والإدراك، وأثر كُلٍّ منهما -العقل والحواس- بالآخر، فالحواس لها الأولوية في فهم ومعرفة أثر الأشياء، حتى يمكن للعقل بعد ذلك أنْ يدرك بعض الحقائق من غير الاستعانة بالحس، أو إدراك ما لا يمكن للحواس أنْ تدركه، فجميع تلك الحواس تدلُّ الإنسان على آثار عظمة الله تعالى، وما في ذلك من إشارة مهمة للعقل في اختيار الطريق الأمثل لطاعة الله، والامتثال لتعاليم الشريعة المقدسة.

ثم ينتقل الفخر الرازي في المسألة الثانية إلى بيان سبيل الهداية الإلهية للإنسان فيقول: ((السَّبِيلُ هُوَ الَّذِيْ يُسْلَكُ مِنَ الطَّرِيْقِ، فَيَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ الْمُرَادُ بِالسَّبِيْلِ هَا هُنَا سَبِيْلُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالنَّجَاةِ وَالْهَلَاكِ، وَيَكُوْنُ مَعْنَى ﴿هَدَيْنَاهُ﴾، أَيْ عَرَّفْنَاهُ وَبَيَّنَا كَيْفِيَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1]، يَكُوْنُ السَّبِيْلُ اسْمًا لِلْجِنْسِ، فَلِهَذَا أَفْرَدَ لَفْظَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ﴾[2]، وَيَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ الْمُرَادُ بِالسَّبِيْلِ هُوَ سَبِيْلُ الْهُدَى؛ لِأَنَّهَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الْمَعْرُوْفَةُ الْمُسْتَحِقَّةُ لِهَذَا الْاسْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَأَمَّا سَبِيْلُ الضَّلَالَةِ فَإِنَّمَا هِيَ سَبِيْلٌ بِالْإِضَافَةِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّوْنَا السَّبِيْلَا﴾[1] وَإِنَّمَا أَضَلُّوْهُمْ

(١) سورة البلد: الآية ١٠.

(٢) سورة العصر: الآية ٢.

سَبِيْلَ الْهُدَى، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا جَعَلَ مَعْنَى قَوْلَهُ: ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ وَإِذَا أَرْشَدَ لِسَبِيْلِ الْحَقِّ، فَقَدْ نَبَّهَ عَلَى تَجَنُّبِ مَا سِوَاهَا،فَكَانَ اللَّفْظُ دَلِيْلًا عَلَى الطَّرِيْقَيْنِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ))[٢].

وفي هذه المسألة الثانية أراه يذهب إلى ما ذكره الشيخ الطوسي في أنَّ الهداية هي البيان للسبيل، وليس تخيير الله تعالى لعبده بين الطريقين من خلال بيانه لغايتهما، وإنْ كان ذلك ممكنًا كما تقدم.

هذا ما أردت بيانه لكلام المفسرين القدامى بإيجاز حول الآية المباركة، وما يمكن أنْ يفهم من مدلولاتها، وقد أكَّده وفصَّل في بيانه بعض المفسرين المُحدثين، حيث قال السيد الطباطبائي في المراد من الهداية: ((الْهِدَايَةُ بِمَعْنَى إِرَاءَةِ الطَّرِيْقِ دُوْنَ الْإِيْصَالِ إِلَى الْمَطْلُوْبِ))[٣]، وهو كلام دقيق في بيان الهداية في الآية المباركة كما تقدم، حيث الإراءة للطريق تخالف الإيصال للطريق الذي يؤدي إلى الجبر الذي لا يمكن أنْ يطلق على الله تعالى، ثم أستعرض ما يتعلق بالآية في الرد على القائلين بأنها توحي إلى الجبر فقال: ((وَثَانِيًا: إِنَّ السَّبِيْلَ الْمُهْدِيَّ إِلَيْهِ سَبِيْلٌ اخْتِيَارِيٌّ، وَإِنَّ الشُّكْرَ وَالْكُفْرَ اللَّذَيْنِ يَتَرَتَّبَانِ عَلَى الْهِدَايَةِ الْمَذْكُوْرَةِ وَاقِعَانِ فِيْ مُسْتَقَرِّ الاخْتِيَارِ لِلْإِنْسَانِ، أَنْ يَتَلَبَّسَ بِأَيِّهِمَا شَاءَ، مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَإِجْبَارٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ السَّبِيْلَ يَسَّرَهُ﴾[٤]))[١]، وكان له كلام دقيق

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٧٤١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ١٢٣.

(٤) سورة عبس: الآية ٢٠.

في بيان نوعين من الهداية الإلهية، وهما الهداية الفطرية والهداية القولية، حيث تعلق الأولى بفطرة الله تعالى لخلقه عامة، والثانية تتعلق بآثار الدعوة الإلهية.

مما تقدم في بيان الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام: (إِمَّا آخِذٌ فَشَاكِرٌ، وَإِمَّا تَارِكٌ فَكَافِرٌ)، نرى إشارة واضحة إلى أنَّ الآخذ هو المتمسك بتعاليم الله تعالى من خلال الهداية الفطرية والقولية الداعية إلى الاعتراف بوجود خالق عظيم لهذا الكون وما فيه، توجب الإذعان إليه والأخذ بتعاليمه التي أوجبها من خلال تشريعاته المقدسة، أو متمرِّد على تلك الهدايتين كافر بما يتعلق بهما كذلك، وفي كُلِّ هذا إنَّ حديثه عليه السلام في بيان المراد من الآية المباركة هو إشارة إلى آختيار الإنسان الطريق الذي يريد أنْ يسلكه بعد بيان الله تعالى لهمابكُلِّ وضوح، وأوجب عليه الطاعة والإيمان والابتعاد عن المعصية والكفر، ولكن كُلَّ ذلك ليس بمفهوم الجبر والإكراه، بل الاختيار لنوع الطريق الذي يريد سلوكه بإرادته، كما هو المنهج القرآني الصريح بذلك، وإنَّ كُلَّ ما ورد من أقوال المفسرين يؤكد ذلك.

(١) الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ١٢٣.

- **الآية العاشرة:**

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾(١).

* روي عن سعد بن سعد(٢)، قال: ((سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُوْنَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيكُمْ لَمْ يَدْخُلُوْهَا وَهُمْ يَطْمَعُوْنَ﴾؟ فَقَالَ: هُمْ -يَا سَعْدُ- الْأَئِمَّةُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ))(٣).

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبيِّن مسألة من المسائل القرآنية المهمة التي لها علاقة بمقام النبي والأئمة عليهم السلام في القرآن الكريم، وبيان آثارهم يوم القيامة، وما يتعلق بذلك من موضوعات أخرى، ونحاول من خلال الآية المباركة والرواية التفسيرية الشريفة بيان موضوعين بإيجاز، يتناول الأول مصطلح الأعراف وما يتعلق به، والآخر أقوال المفسرين في الآية المباركة، وبيان الاختلافات في مصاديق أهل الأعراف.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٦.

(٢) سعد بن سعد الأحوص الأشعري القمي، من كبار علماء ومحدثي الشيعة الإمامية الثقات، كان فقيهًا فاضلًا، عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عن الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام. توفي قبل عام ٢٢٠هـ. ينظر: معجم رجال الحديث ٨/ ٦٢-٦٣.

(٣) بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفار ٢/ ٤٤٦.

- **الأول: المراد من الأعراف.**

لقد ورد في كلام العلماء بيان المراد من الأعراف، وأين يقع ذلك، بأقوال متقاربة ومتشابهة إجمالًا، ونذكر من ذلك ما يأتي:

* قال الراغب الأصفهاني: ((فَإِنَّهُ سُوْرٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ))[١].

* وقال الشيخ الطريحي: ((وَهُوَ السُّوْرُ الْمَضْرُوْبُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهِيَ أَعَالِيْهِ، جَمْعُ عُرْفٍ، مُسْتَعَارٌ مِنْ عُرْفِ الْفَرَسِ وَالدِّيْكِ))[٢].

فهذا القولان الواردان للتعريف يظهران المراد من الأعراف، بأنه السور الفاصل بين الجنة والنار، مع إضافة كونه عاليًا كما أشار الشيخ الطريحي إلى ذلك، وهذا ما أكده الشيخ حسن المصطفوي (ت١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) عند بيانه وتحقيقه لكلمة (الأعراف)، فبعد أنْ ذكر كلام اللغويين قال: ((الْأَعْرَافُ جَمْعُ عُرْفٍ، كَقُفْلٍ وَغُسْلٍ، وَقُلْنَا إِنَّهُ مَا يَعْلُوْ وَيُعْرَفُ))[٣]، ولكنه ذكر ما هو أبعد مما يتعلق بالمعنى المراد المعهود، فقال: ((وَهَذِهِ مُقَامَاتُ أَوْلِيَائِهِ الْمُقَرَّبِيْنَ السَّابِقِيْنَ الَّذِيْنَ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيْمِ؛ وَلَمَّا ذَكَرَ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابَ النَّارِ وَمَكَالَمَاتِهِمْ قَالَ تَعَالَى: وَعَلَى الْأَعَالِيْ مِنْهُمَا رِجَالٌ))، ولكن مما يحتاج إلى تأمل ومراجعة في الوقت نفسه هو ما ذيَّل به ذلك بقوله: ((وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى [العلو والارتفاع] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُوْنَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ بِهِمْ وَبِأَحْوَالِهِمْ

(١) المفردات في غريب القرآن ص٥٦٢ (عرف).

(٢) مجمع البحرين ٢/ ١٥٨ (عرف).

(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٨/ ١١٩ (عرف).

وَمَقَامَاتِهِمْ تُوْجِبُ عُلُوًّا، وَإِحَاطَةً، وَٱرْتِفَاعًا عَلَيْهِمْ)) [١]. فإنْ كان مقصوده العلو والارتفاع المعنوي والمعرفي والمقامي فهذا مما لا إشكال فيه، فوظيفتهم تستلزم ذلك، وأما إنْ كان مقصوده الارتفاع المادي ولعله هو المراد منه بقرينة ما مضى من كلام، فلا أظنَّ ذلك ملائمًا؛ حيث ٱنكشاف الحقائق في ذلك اليوم ٱنكشافًا تامًّا.

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

ذكر المفسرون آراء متعددة في بيان المراد من أهل الأعراف في الآية المباركة، ونختصر ذلك على ما يأتي:

١- ذكر الطبري روايات كثيرة مختلفة في بيان المراد من أهل الأعراف، وأغلبها في الواقع لا تتلاءم مع مقام أهل الأعراف الذين جعلهم الله تعالى فيه، فمنها: إنَّهم صنف من أهل الذنوب من الناس حبسوا هناك. أو إنهم قوم ٱستوت حسناتهم وسيئاتهم. أو إنهم قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار، وهم آخر من يدخل الجنة. أو إنهم قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة. أو إنهم قوم صالحون فقهاء علماء. أو إنهم هم ملائكة وليسوا ببني آدم .... إلى غير ذلك من أقوال[٢].

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٨/ ١١٩ (عرف).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٢/ ٤٥٢-٤٦٠.

وبعد أنْ ذكر الطبري هذه الأقوال وغيرها المتعددة قال: ((وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِيْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ أَنْ يُقَالَ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِيْهِمْ: هُمْ رِجَالٌ يَعْرِفُوْنَ كُلًّا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِسِيْمَاهُمْ، وَلَا خَبَرَ عَنْ رَسُوْلِ الله "صلى الله عليه [وآله] وسلم" يَصُحُّ سَنَدُهُ، وَلَا أَنَّهُ مُتَّفَقٌ عَلَى تَأْوِيْلِهَا، وَلَا إِجْمَاعَ مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ))[1].

إنَّ الطبري لم يبيِّن المراد من أصحاب الأعراف وصفتهم، بل سرد جمعًا من الروايات فيما قيل فيهم، ولم يرجِّح أيًّا منها، بل أرجع القول إلى القرآن من غير تفسير، بقوله إنهم رجال كما قال القرآن، وهذا في الواقع أمر بديهي ظاهر.

٢- قال الشيخ الطوسي: ((أَحَدُهَا: إِنَّهُمْ فُضَلَاءُ الْمُؤْمِنِيْنَ فِيْ قَوْلِ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدَ، قَالَ أَبُوْ عَلِيٍّ الْجُبَّائِيُّ: هُمْ الشُّهَدَاءُ وَهُمْ عُدُوْلُ الْآخِرَةِ، وَقَالَ أَبُوْ جَعْفَرٍ عليه السلام: هُمُ الْأَئِمَّةُ، وَمِنْهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله. وَقَالَ أَبُوْ عَبْدِ الله عليه السلام الْأَعْرَافُ كُثْبَانٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُوْقَفُ عَلَيْهَا كُلُّ نَبِيٍّ، وَكُلُّ خَلِيْفَةِ نَبِيٍّ مَعَ الْمُذْنِبِيْنَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ، كَمَا يُوْقَفُ قَائِدُ الْجَيْشِ مَعَ الضُّعَفَاءِ مِنْ جُنْدِهِ، وَقَدْ سُبِقَ الْمُحْسِنُوْنَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُوْلُ ذَلِكَ الْخَلِيْفَةُ لِلْمُذْنِبِيْنَ الْوَاقِفِيْنَ مَعَهُ لْظُرُوْا إِلَى إِخْوَانِكُمُ الْمُحْسِنِيْنَ، قَدْ سَبَقُوْا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُسَلِّمُ الْمُذْنِبُوْنَ عَلَيْهِمْ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾))[2].

إنَّ الشيخ الطوسي قدس سره عند تفسيره للآية المباركة قد ذكر بعد هذا القول أقوالًا متعددة، كبعض الأقوال التي ذكرها الطبري كما تقدم، وهذا القول الذي

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٢/ ٤٦٠.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ٨/ ٤١١.

قد ذكره مما يمكن الاعتماد عليه، فهو أقرب إلى المعنى من خلال سياق الآية المباركة، وفيه ما يطابق الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في بيان المراد من أولئك الرجال الذين سيكون لهم ذلك المقام في الآخرة.

وبعد ذلك ذكر الشيخ الطوسي ما يتعلق بما يقوم به أهل الأعراف من عمل، ومما قاله: ((ثُمَّ يُنَادِيْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْخُلَفَاءُ أَهْلَ النَّارِ مُقَرِّعِيْنَ لَهُمْ ﴿مَا أَغْنَى عَنكُم جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِيْنَ أَقْسَمْتُمْ﴾[1]، يَعْنِيْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ الَّذِيْنَ كُنْتُمْ تَحْتَقِرُوْنَهُمْ، وَتَسْتَطِيْلُوْنَ بِدُنْيَاكُمْ عَلَيْهِمْ .... وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عُمَرُ بْنُ شَيْبَةَ وَغَيْرُهُ: أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام قَسِيْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَرَوَى ٱبْنُ شَيْبَةَ بِإِسْنَادِهِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: "يَا عَلِيُّ كَأَنِّيْ بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبِيَدِكَ عَصَا مِنْ عَوْسَجٍ تَسُوْقُ قَوْمًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَآخَرِيْنَ إِلَى النَّارِ))[2].

إنَّ ما تم ذكره يؤكد ما ذهب إليه بما يتعلق في أصحاب الأعراف من الأنبياء والأئمة عليهم السلام، الذين هم أصحاب هذا المقام الرفيع الذي سيكون لهم ذلك الشأن العظيم من حيث الشفاعة عند الله تعالى للمؤمنين، وإقامة الحجة على غيرهم بما كانوا يعتقدون فيهم، وهذا يطابق ما ورد في الرواية التفسيرية عن الإمام الجواد عليه السلام.

٣- الفخر الرازي قد تناول الروايات المختلفة في بيان أهل الأعراف وجعلها على قسمين رئيسين على كثرتها وٱختلافها، فقال: ((وَلَقَدْ كَثُرَتِ الْأَقْوَالُ فِيْهِمْ،

(١) سورة الأعراف: الآيتان ٤٨-٤٩.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ٨/ ٤١١.

وَهِيَ مَحْصُوْرَةٌ فِيْ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمُ الْأَشْرَافُ مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ الثَّوَابِ. الثَّانِيْ: أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمْ أَقْوَامٌ يَكُوْنُوْنَ فِيْ الدَّرَجَةِ السَّافِلَةِ مِنْ أَهْلِ الثَّوَابِ))[1].

ثم يذكر مصاديق الصنفين كما تقدم في روايات الطبري، ولكنه لم يرجِّح أو يبيِّن المراد من أولئك الرجال الذين مدحهم الله تعالى وبيَّن مقامهم، فقال في ختام ذلك: ((فَهَذِهِ تَفَاصِيْلُ أَقْوَالِ النَّاسِ فِيْ هَذَا الْبَابِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ يَعْرِفُوْنَ كُلًّا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِسِيْمَاهُمْ ....))[2].

٤- **السيد محمد حسين الطباطبائي** وقد ناقش السيد ذلك نقاشًا علميًّا رائعًا من جوانبه المتعددة، حيث ذكر جميع الأقوال الواردة في بيان ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، والتي أنهاها إلى اثني عشر قولًا، ثم ذكر ما يتعلق بأهمية هذا الصنف الذين خصهم الله تعالى فقال: ((لَا رَيْبَ أَنَّ إِطْلَاقَ لَفْظِ ﴿رِجَالٌ﴾ لَا يَشْمِلُ الْمَلَائِكَةَ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَّصِفُوْنَ بِالرُّجُوْلِيَّةِ وَالْأُنُوْثِيَّةِ، كَمَا يَتَّصِفُ بِهِ جِنْسُ الْحَيْوَانِ، وَإِنْ قِيْلَ: إِنَّهُمْ رُبَّمَا يَظْهَرُوْنَ فِيْ شِكْلِ الرِّجَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُصَحِّحُ الاتِّصَافَ وَالتَّسْمِيَةَ، عَلَى أَنَّه لَا دَلِيْلَ يَدُلُّ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ التَّعْبِيْرَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ﴾ إلخ، وَخَاصَّةً بِالتَّنْكِيْرِ يَدُلُّ بِحَسَبِ عُرْفِ اللُّغَةِ عَلَى اعْتِنَاءٍ تَامٍّ بِشَأْنِ الْأَفْرَادِ الْمَقْصُوْدِيْنَ بِاللَّفْظِ، نَظَرًا إِلَى دَلَالَةِ الرَّجُلِ بِحَسَبِ الْعَادَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ الْقَوِيِّ فِيْ تَعَقُّلِهِ، وَإِرَادَتِهِ، الشَّدِيْدِ فِيْ قَوَامِهِ))[3].

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه ١٤/ ٢٥٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ٨/ ١٢٤.

إنَّ ما ذكره السيد الطباطبائي قدس سره يؤكد شدة اعتناء الله تعالى بهؤلاء الرجال، وأنَّ فيهم من الصفات التي لم يتصف بها غيرهم حيث أوجبت لهم ذلك المقام الرفيع يوم القيامة، ومع أنَّ القرآن الكريم لم يذكر ما يتعلق بصفاتهم سوى ما ورد في الآية المباركة، لكن السيد يرى ظهور وبروز مقامهم، من خلال سياق استعمال هذا اللفظ في موارد أخرى فقال بعدما تقدم: ((وَعَلَى ذَلِكَ [في بيان الرجال] يَجْرِيْ مَا يُوْجَدُ فِيْ كَلَامِهِ تَعَالَى مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[1]، وقوله: ﴿فِيْهِ رِجَالٌ يُحِبُّوْنَ أَنْ يَتَطَهَّرُوْا﴾[2]، وقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوْا مَا عَاهَدُوْا اللهَّ عَلَيْهِ﴾[3].... فَالْمُرَادُ بِـ﴿رِجَالٌ﴾ فِيْ الْآيَةِ أَفْرَادٌ تَامُّوْنَ فِيْ إِنْسَانِيَّتِهِمْ لَا مَحَالَةَ، وَإِنْ فُرِضَ أَنَّ فِيْهِمْ أَفْرَادًا مِنَ النِّسَاءِ كَانَ مِنَ التَّغْلِيْبِ))[4].

وبعد تصريحه المتقدم في بيان مقام أولئك الرجال يذكر في نقاط أربع ما يدل على خصوصياتهم ببيان تام، ودليل متقن على ذلك، ليذكر الرأي الذي يراه بعده بقوله: ((فَهَذِهِ الْخُصُوْصِيَّاتُ الَّتِيْ تَنْكَشِفُ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ بِالتَّدَبُّرِ فِيْهَا، وَأُخْرَى تَتْبَعُهَا، لَا تُبْقِيْ رَيْبًا لِلْمُتَدَبِّرِ فِيْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِيْنَ أَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ فِيْ قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ جَمْعٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلَصِيْنَ مِنْ غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ، هُمْ أَرْفَعُ مَقَامًا، وَأَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْ سَائِرِ أَهْلِ

(١) سورة النور: الآية ٣٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

(٤) الميزان في تفسير القرآن ٨/ ١٢٤-١٢٥.

الْجَمْعِ، يَعْرِفُوْنَ عَامَّةَ الْفَرِيْقَيْنِ، لَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوْا بِالْحَقِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَهُمْ أَنْ يَشْهَدُوْا، وَلَهُمْ أَنْ يَشْفَعُوْا، وَلَهُمْ أَنْ يَأْمُرُوْا، وَيَقْضُوْا))[1].

فما أجلَّهُ من بيان، وأعظمَهُ وأدقَّهُ في وضوح صورة أولئك الرجال ((لَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوْا بِالْحَقِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَهُمْ أَنْ يَشْهَدُوْا، وَلَهُمْ أَنْ يَشْفَعُوْا، وَلَهُمْ أَنْ يَأْمُرُوْا، وَيَقْضُوْا))، والذي لا ينطبق حقيقة إلا على المعصومين (صلوات الله عليهم) كما أكدت ذلك الروايات المباركة الواردة عنهم عليهم السلام، وكذلك الرواية التفسيرية عن الإمام الجواد عليه السلام، فمما روي عن الإمام علي عليه السلام قوله في جواب عن الآية: ((نَحْنُ عَلَى الْأَعْرَافِ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنْصَارَنَا بِسِيمَاهُمْ، وَنَحْنُ الْأَعْرَافُ الَّذِيْنَ لَا يُعْرَفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِسَبِيْلِ مَعْرِفَتِنَا، وَنَحْنُ الْأَعْرَافُ يُوْقِفُنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ، فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَنَا وَعَرَفْنَاهُ، وَلَا يَدْخُلِ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَنَا وَأَنْكَرْنَاهُ))[2].

إنَّ أغلب ما تم ذكره من أقوال المفسرين وترجيحاتهم لأصحاب الأعراف فيه بيان لما ورد من الروايات الشريفة عن المعصومين عليهم السلام، وخصوصًا الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام، وفي هذا ظهور الاتفاق التام في منهج الثقلين.

(١) الميزان في تفسير القرآن ٨/ ١٢٧.

(٢) الكافي ج٢ ص١٨٤. كتاب (التوحيد)، باب (معرفة الإمام والرد إليه) الحديث ٩.

- **الآية الحادية عشرة:**

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوْا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِيْ الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيْرٌ﴾[١].

* روي عن الحسين بن بشار الواسطي[٢]، قال: ((كَتَبْتُ إِلَى أَبِيْ جَعْفَرٍ عليه السلام أَسْأَلُهُ عَنِ النِّكَاحِ فَكَتَبَ إِلَيَّ مَنْ خَطَبَ إِلَيْكُمْ فَرَضِيْتُمْ دِيْنَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوِّجُوْهُ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِيْ الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيْرٌ﴾))[٣].

إنَّ الرواية التفسيرية الشريفة تبيِّن مسألة من المسائل التي ذكرها القرآن الكريم في موارد متعددة وهي الزواج، وأثره ذلك في بناء الأسرة والمجتمع، وقد ذكر الإمام الجواد عليه السلام هذا المقطع من الآية المباركة كشاهد قرآنيٍّ لذلك، وقد وردت روايتان غير هذه لبيان ما يتعلق بالزواج وأهمية اختيار الزوج[٤]، ونحاول من خلال الآية المباركة والرواية التفسيرية الشريفة بيان موضوعين بإيجاز، يتناول الأول تأكيد القرآن الكريم على الزواج وأقوال المفسرين فيه،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٣.

(٢) الحسين بن بشار الواسطي، من رواة الأحاديث عن الأئمة عليهم السلام، ثقة، صحيح، روى عن الإمام الكاظم والرضا والجواد عليهم السلام. ينظر: معجم رجال الحديث ٦/ ٢٢٠-٢٢٣.

(٣) الكافي ٥/ ٣٤٧ كتاب (النكاح)، باب (آخر منه) الحديث ١

(٤) في الرواية الأولى عن علي بن أسباط، والأخرى عن إبراهيم بن محمد الهمداني، وقد استشهد بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك ((إِذَا جَاءَ كُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِيْنَهُ فَزَوِّجُوْهُ)). ينظر: المصدر نفسه.

والآخر الروايات المباركة التي تؤكد أهمية الزواج في حفظ المجتمع من الانحراف.

ولعل المراد من الفتنة كما وردت في الآية المباركة ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾ التي يمكن أنْ تقع في الأرض هو الاختبار الشديد والابتلاء الذي يصيب الرجال والنساء بسبب عدم التزويج، وما يلاقونه من امتحان في ذلك من خلال الصبر على الشهوات، وكبح جماحها، ومحاربة تسويلات الشيطان، وما في ذلك من مشقة كبيرة، قد تؤدي إلى الفساد الشخصي والنوعي في المجتمع، فالمراد من الفتنة في كلام العلماء الابتلاء والاختبار والامتحان[1].

- **الأول: الزواج في القرآن الكريم.**

إنَّ القرآن الكريم قد حث على الزواج واعتنى به، من حيث الاختيار للزوجين ومواصفاتها، وأهمية ذلك في بناء الأسرة والمجتمع، وهناك آيات متعددة يمكن الإفادة منها مباشرة، أو من خلال الإشارة إليها، ومنها:

١ - قال تعالى﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوْا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾[2].

إنَّ الله تعالى قد جعل الزواج آية من آياته الخَلقية العظيمة، فضلًا عن الآثار العظيمة لذلك من خلال المودة والرحمة التي جعلها بين الزوجين، وفيه إشارة عظيمة إلى أهمية الزواج والحث عليه، وتتبع آثاره الطيبة وبركاته، وهذا

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن ص٦٢٣ (فتن). مجمع البحرين ٣/ ٣٥٩ (فتن).
(٢) سورة الروم: الآية ٢١.

يحتاج حقيقة إلى تفكُّر وتأمُّل فيه. قال السيد محمد حسين الطباطبائي: ((لِأَنَّهُمْ إِذَا تَفَكَّرُوْا فِيْ الْأُصُوْلِ التَّكْوِيْنِيَّةِ الَّتِيْ يَبْعَثُ الْإِنْسَانُ إِلَى عَقْدِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الذُّكُوْرَةِ وَالْأُنُوْثَةِ الدَّاعِيَتَيْنِ إِلَى الْاجْتِمَاعِ الْمَنْزِلِيِّ، وَالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ الْبَاعِثَتَيْنِ عَلَى الاجْتِمَاعِ الْمَدَنِيِّ، ثُمَّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الاجْتِمَاعِ مِنْ بَقَاءِ النَّوْعِ وَلِاسْتِكْمَالِ الْإِنْسَانِ فِيْ حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى عَثَرُوْا مِنْ عَجَائِبِ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ فِيْ تَدْبِيْرِ أَمْرِ هَذَا النَّوْعِ عَلَى مَا يُبْهِرُ بِهِ عُقُوْلَهُمْ، وَتُدْهَشُ بِهِ أَحْلَامُهُمْ))[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُوْنُوْا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾[2].

إنَّ الآية المباركة وإنْ كانت متعلقة بالإماء والعبيد، ولكن يُفادُ منها الحث على النكاح من خلال متابعة المؤهلين لذلك، وخصوصًا المؤمنين منهم، وعدم الاكتراث بالفقر الذي يكون عائقًا في أحايين، ولكنه ليس مانعًا لذلك، بل في الآية المباركة حث على مراعاة تلك الأحوال الاجتماعية التي يمر بها بعض المؤمنين والصالحين، وعدم الركون إلى الأموال وجعلها سببًا رئيسًا للزواج، وترك ما هو أعظم من ذلك وهو الإيمان.

وفي حث الآية على تزويج الإماء والعبيد الصالحين والغاية من ذلك قال الفخر الرازي: ((المسألة الثانية: إِنَّمَا خَصَّ الصَّالِحِيْنَ بِالذِّكْرِ لِوُجُوْهٍ: الأول: لِيُحَصِّنَ دِيْنَهُمْ، وَيَحْفَظَ عَلَيْهِمْ صَلَاحَهُمْ. الثاني: لِأَنَّ الصَّالِحِيْنَ مِنَ الْأَرِقَّاءِ هُمُ

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٦/ ١٦٦.

(٢) سورة النور: الآية ٣٢.

الَّذِيْنَ مَوَالِيْهُمْ يُشْفِقُوْنَ عَلَيْهِمْ، وَيُنْزِلُوْنَهُمْ مَنْزِلَةَ الْأَوْلَادِ فِيْ الْمَوَدَّةِ، فَكَانُوْا مَظَنَّةً لِلتَّوْصِيَةِ بِشَأْنِهِمْ، وَالاهْتِمَامِ بِهِمْ، وَتَقَبُّلِ الْوَصِيَّةِ فِيْهِمْ))[1].

فالغاية هو حفظ النظام من الفساد وصلاحه، كما أشارت إليه رواية الإمام الجواد عليه السلام، بل حاول القرآن الكريم علاج الفقر الذي يكون عليه الإنسان الراغب بالزواج من خلال توصيته بالعفاف، فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2]، وهذا يحتاج إلى قوة عقيدة وإيمان وما يرافق ذلك من ٱبتلاء وٱختبار.

٣- قال تعالى: ﴿وَآتُوْا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوْهُ هَنِيْئًا مَرِيْئًا﴾[3].

إنَّ في الآية المباركة بيان عظمة التشريع الإسلامي لأمر الزواج وما يتعلق به من حيث الحقوق الواجبة للزوجة من مهر وغيره، وفي ذلك كمال العناية الإلهية بالزواج، وحفظ الحقوق والواجبات المترتبة عليه، والقضاء على العادات الجاهلية التي كانت آنذاك، وجعل المهر حق ثابت للزوجة لا يجوز التصرف فيه إلا بإذنها أو التبرع به للزوج وما في ذلك حفظ النظام العام في المجتمع.

قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في بيان مدى عظمة التشريع الإسلامي في ذلك: ((ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ سُبْحَانَهُ -بصراحة- فِيْ مَطْلَعِ الْآيَةِ

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٣٧١.

(٢) سورة النور: الآية ٣٣.

(٣) سورة النساء: الآية ٤.

بِأَنْ تُعْطَى لِلنِّسَاءِ مُهُوْرُهُنَّ كَامِلَةً وَدُوْنَ نُقْصَانٍ؛ حِفْظًا لِحُقُوْقِهِنَّ، يَعْمَدُ فِيْ ذَيْلِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى بَيَانِ مَا مِنْ شَأْنِهِ ٱحْتِرَامُ مَشَاعِرِ كِلَا الطَّرَفَيْنِ، وَمِنْ شَأْنِهِ تَقْوِيَةُ أَوَاصِرِ الْوُدِّ وَالْمَحَبَّةِ وَالْعِلَاقَةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَكَسْبِ الْعَوَاطِفِ، إِذْ يَقُوْلُ: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾، أَيْ لَوْ تَنَازَلَتِ الزَّوْجَةُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَهْرِ، وَوَهَبَتْهُ لِلزَّوْجِ عَنْ طِيْبِ نَفْسِهَا جَازَ لِلزَّوْجِ أَكْلُ الْمَوْهُوْبِ لَهُ، وَإِنَّمَا أَقَرَّ الْإِسْلَامُ هَذَا الْمَبْدَأَ لِكَيْلَا تَكُوْنَ الْبِيْئَةُ الْعَائِلِيَّةُ، وَالْحَيَاةُ الزَّوْجِيَّةُ مَيْدَانًا لِسِلْسِلَةٍ مِنَ الْقَوَانِيْنِ، وَالْمُقَرَّرَاتِ الْجَافَّةِ، بَلْ يَكُوْنَ مَسْرَحًا لِلتَّلَاقِيْ الْعَاطِفِيِّ الْإِنْسَانِيِّ، وَتَسُوْدُ فِيْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَحَبَّةُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الْمُقَرَّرَاتِ، وَالْأَحْكَامِ الْحُقُوْقِيَّةِ الْمَذْكُوْرَةِ))[1].

إنَّ هذه الآيات المباركة وغيرها، فضلًا عن الروايات الشريفة تؤكِّد ما يتعلق بالرواية التفسيرية التي ٱستشهد بها الإمام الجواد عليه السلام بذلك الشاهد القرآني في تنظيم حياة الإنسان والمجتمع من خلال الزواج، فضلًا عن بيان آثاره وما يتعلق به والحث عليه.

- **الثاني: الروايات الشريفة في الزواج والتحذير من الفتنة والإفساد.**

إنَّ المتتبع لروايات المعصومين عليهم السلام في الحث على الزواج والتحذير من عرقلة ذلك لأسباب معينة، لرأى أهمية الأمر وعظمة آثاره، كما ورد في الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام ولٱستعماله للشاهد القرآني ﴿إِلَّا تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ

(١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ٣/ ٢٨.

فِيْ الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيْرٌ﴾، ونحاول بإيجاز ذكر روايات شريفة ثلاث مثالًا على أهمية ذلك:

- روي عن الإمام علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِيْنَهُ فَزَوِّجُوْهُ. قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ الله، وَإِنْ كَانَ دَنِيًّا فِيْ نَسَبِهِ؟ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِيْنَهُ فَزَوِّجُوْهُ، إِلَّا تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِيْ الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيْرٌ))[1].

فالحديث ظاهر البيان في أهمية العناية بأمرين مهمين عند التزويج، وهما (الخلق والدين)، فالأخلاق والدين لهما أثر كبير في بناء الأسرة والمجتمع، ويجب البحث عن أمثال الذين يتصفون بهاتين الصفتين، وعدم النظر إلى ما دونهما، وقد أثبتت التجارب ما لذلك من أهمية كبيرة في البناء الإنساني، بل هناك روايات قد نهت التزويج من سيء الخلق؛ تأكيدًا للآثار المترتبة على ذلك.

- رويعن الإمام الصادق عليه السلام: ((الكُفْوُ أَنْ يَكُوْنَ عَفِيْفًا، وَعِنْدَهُ يَسَارٌ))[2].

فالرجل الكفو الذي ينبغي أنْ يتم تزويجه من كان عفيفًا عن محارم الله تعالى، والعفة أعظم زينة الرجل وأكرمها، فلا حساب للأموال تجاه هذا الشرف العظيم، فاليسار من المعيشة يمكنه أنْ يتزوج ويبني أسرة على محبة الله تعالى وطاعته، فالرواية تجعل (العفة) هي رأس مال الرجل في التزويج، وعلينا

(١) وسائل الشيعة ٢٠/ ٧٨ ، الحديث ٦ ، وقد جمع الشيخ رحمه الله مجموعة من الروايات في ذلك تحت عنوان مهم ولطيف، وفيه تمام العناية وهو (باب أنه يستحب للمرأة وأهلها آختيار الزوج الذي يرضى خلقه ودينه وأمانته، ويكون عفيفًا صاحي يسار، وعدم جواز رده إذا خطب).

(٢) المصدر نفسه، الحديث ٥.

أنْ نجعل ذلك رمز الزواج الناجح في الإسلام، بل نهت الرواية عن النظر إلى غير ذلك، فمما ورد في الحديث عن الإمام السجاد عليه السلام قوله: ((إِنَّ اللهَ رَفَعَ بِالْإِسْلَامِ كُلَّ خَسِيْسَةٍ، وَأَتَمَّ بِهِ النَّاقِصَةَ، وَأَذْهَبَ بِهِ اللُّؤْمَ، فَلَا لُؤْمَ عَلَى مُسْلِمٍ، وَإِنَّمَا اللُّؤْمُ لُؤْمُ الْجَاهِلِيَّةِ))[١].

- روي عن الإمام الصادق عليه السلام: ((إِنَّ رَسُوْلَ الله صلى الله عليه وآله زَوَّجَ الْمِقْدَادَ ٱبْنَ الْأَسْوَدِ ضُبَاعَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا زَوَّجَهَا الْمِقْدَادَ لِتَتَّضِعَ الْمَنَاكِحُ، وَلِتَتَأَسَّوْا بِرَسُوْلِ الله صلى الله عليه وآله، وَلِتَعْلَمُوْا أَنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ، وَكَانَ الزُّبَيْرُ أَخَا عَبْدِ الله وَأَبِيْ طَالِبْ لِأَبِيْهِمَا وَأُمِّهِمَا))[٢].

فالحديث يؤكد المعاني العظيمة للتشريع الإسلامي في الزواج، وٱختيار الزوج والزوجة على وفق المعايير التي وضعها للتفاضل في المجتمع، وقد ٱستشهد الإمام عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوْا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ﴾[٣] وفيه بيان جلي على شرف منزلة (التقوى) ومقامها في التشريع الإسلامي، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في خطوة عملية كبيرة أراد أنْ يؤكد ذلك، ويدعو إليه، وعدم فسح المجال لأسباب محددة تؤدي إلى الفتنة والفساد الكبير في المجتمع.

---

(١) تهذيب الأحكام ٧/ ٤٥٨ كتاب (النكاح)، باب (الكفاءة في النكاح) الحديث ١١.

(٢) الكافي ٥/ ٣٤٤ كتاب (المناكح)، باب (آخر منه) الحديث ١.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وأما فيما يتعلق بصفات المرأة وٱختيارها زوجة فهناك روايات كثيرة قد وضعت أُسس الزواج، وبيَّنت مواصفات خير النساء، وأنَّ المؤمن كفو المؤمنة وإنْ كانت أعلى منه نسبًا وحسبًا وشرفًا، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيان أثر الإيمان والدين في المرأة التي يُراد التزويج منها، قال لرجل: ((ٱنْكِحْ وَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّيْنِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))[1] حيث جعل (الدين) هو الأساس الذي يبحث عنه في المرأة، لا ما هو شائع عند الناس –للأسف– يومها واليوم هو البحث عن الجمال أو المال أو كليهما، فقد حذَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك، وعلينا التأسي به، ففي حديث: ((مَنْ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً لِمَالِهَا وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِجَمَالِهَا رَأَى فِيْهَا مَا يَكْرَهُ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِدِيْنِهَا جَمَعَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ))[2].

(١) الكافي ٥/ ٣٣٢ كتاب (المناكح)، باب (فضل من تزوج ذات دين وكراهة من تزوج للمال) الحديث ١ ، والمراد بالقول (تربت يداك) لصقت يدك بالتراب من شدة الفقر إنْ لم تفعل، وفيه حث على التزويج بالمرأة ذات الدين.

(٢) تهذيب الأحكام ٧/ ٤٦٠ كتاب (النكاح)، باب (آختيار الأزواج) الحديث ١.

- **الآية الثانية عشرة:**

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

روى علي بن عيسى الإربلي رحمه الله عن الإمام الجواد عليه السلام: ((فسادُ الأخلاقِ بمعاشرةِ السفهاءِ، وصلاحُ الأخلاقِ بمنافسةِ العقلاءِ. والخلقُ أشكالٌ فكُلٌّ يعملُ على شاكلتهِ. والناسُ إخوانٌ، فمَنْ كانَتْ أخوتُهُ في غيرِ ذاتِ الله فإنَّها تحوزُ عداوةً، وذلكَ قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾))(٢).

إنَّ الرواية التفسيرية في مقام بيان مفردات أخلاقية مهمة، وما يتعلق بالآية المباركة -خاصة- أمر تربوي إيماني وهو محبة الإخوان في الله تعالى ومودتهم، وهذا له علاقة بالأخلاق وتربية الفرد والمجتمع بصورة عامة من جهة، وبالعقيدة بصورة خاصة من جهة أخرى، والأخلاق من أهم الموضوعات التي حثت عليها الشريعة الإسلامية المقدسة، من خلال نصوصها المتعددة، فضلًا عن السيرة المباركة للنبي والأئمة عليهم السلام في تعاملهم مع الآخرين، بما هو مصداق تام لتلك النصوص، ونحاول بيان ما يتعلق بذلك بإيجاز من خلال موضوعات ثلاثة:

- الأول: ما المراد من الأخلاء.
- الثاني: أقوال المفسرين في الآية المباركة.
- الثالث: تأكيد السنة الشريفة على الإخوة.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٢) كشف الغمة في معرفة الأئمة ٣/ ١٤٢.

- **الأول: ما المراد من الأخلاء.**

إنَّ المعنى العام للخلَّة هو المودة والمحبة والصداقة، وهذا ما ذكره الأعلام في كلماتهم، وما يتعلق بهذا اللفظ من معانٍ له.

* قال الراغب الأصفهاني: ((وَالخُلَّةُ المَوَدَّةُ؛ إِمَّا لِأَنَّهَا تَتَخَلَّلُ النَّفْسَ أَيْ تَتَوَسَّطُهَا؛ وَإِمَّا لِأَنَّهَا تَخِلُّ النَّفْسَ فَتُؤَثِّرُ فِيْهِ تَأْثِيْرَ السَّهْمِ فِيْ الرَّمِيَّةِ؛ وَإِمَّا لِفَرْطِ الحَاجَةِ إِلَيْهَا. يُقَالُ: مِنْهُ خَالَلْتُهُ مخالَّةً، وَخِلَالًا فَهُوَ خَلِيْلٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلًا﴾[1]، قِيْلَ: سَمَّاهُ بِذَلِكَ لِافْتِقَارِهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِيْ كُلِّ حَالٍ .... وَالمَحَبَّةُ الْبُلُوْغُ بِالْوُدِّ إِلَى حَبَّةِ الْقَلْبِ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَبَبْتُهُ إِذَا أَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهِ، لَكِنْ إِذَا ٱسْتُعْمِلَتِ المَحَبَّةُ فِيْ الله فَالْمُرَادُ بِهَا مُجَرَّدُ الْإِحْسَانِ، وَكَذَا الخِلَّةُ))[2].

* وقال الطريحي: ((الخَلِيْلُ: الصَّدِيْقُ الَّذِيْ يُخَالِلُ فِيْ أَمْرِكَ. وَهُوَ فَعِيْلٌ مِنَ الخِلَّةِ أَيِ المَوَدَّةُ وَالصَّدَاقَةُ، وَالْجَمْعُ أَخِلَّاءُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.... الخُلَّةُ بَالضَّمِّ مَوَدَّةٌ مُتَنَاهِيَةٌ فِيْ الإِخْلَاصِ، وَصَدَاقَةٌ قَدْ تَخَلَّلَتِ الْقَلْبَ وَصَارَتْ خِلَالَهُ، أَيْ بَاطِنُهُ))[3].

* وقال ٱبن منظور: ((وَالخِلُّ الْوُدُّ وَالصَّدِيْقُ. وَقَالَ اللَّحْيَانِيُّ: إِنَّهُ لَكَرِيْمُ الخِلِّ وَالخِلَّةِ، كَلَاهُمَا بِالْكَسْرِ، أَيْ كَرِيْمُ الْمُصَادَقَةِ وَالْمُوَادَّةِ وَالْإِخَاءِ. الخُلَّةُ بِالضَّمِّ الصَّدَاقَةُ وَالمَحَبَّةُ الَّتِيْ تَخَلَّلَتِ الْقَلْبَ فَصَارَتْ خِلَالَهُ، أَيْ فِيْ بَاطِنِهِ، وَالخَلِيْلُ الصَّدِيْقُ فَعِيْلٌ بِمَعْنَى مُفَاعِلٌ، وَقَدْ يَكُوْنُ بِمَعْنَى مَفْعُوْلٍ .... وَمَنْ جَعَلَ الخَلِيْلَ

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص١٥٩-١٦٠.

(٣) مجمع البحرين ٥/ ٣٦٥ (الخلة).

مُشْتَقًّا مِنَ الخَلَّةِ وَهِيَ الحَاجَةُ وَالْفَقْرُ، أَرَادَ إِنَّنِيْ أَبْرَأُ مِنَ الاعْتِمَادِ وَالافْتِقَارِ إِلَى أَحَدٍ غَيْرَ الله عَزَّ وَجَلَّ))[1].

من خلال هذه التعريفات للخلة يتبين المراد منها في بيان المراد من قوله تعالى في الآية المباركة، وبيان آثار ذلك على سلوك الإنسان عامة.

- **الثاني: أقوال المفسرين.**

للمفسرين بيان مهم للآية المباركة تؤكد فضل العلاقة القائمة على المحبة والمودة والإيمان والتقوى، وآثار ذلك في الدنيا والآخرة.

١ - قال الشيخ الطوسي: ((يَعْنِيْ مَنْ كَانَتْ خِلَّتُهُ فِيْ دَارِ الدُّنْيَا فِيْ غَيْرِ طَاعَةِ الله بَلْ كَانَتْ فِيْ مَعْصِيَةِ الله فَإِنَّ تِلْكَ الخِلَّةَ تَنْقَلِبُ عَلَيْهِ عَدَاوَةٌ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَتَبَيَّنُ فَسَادَ تِلْكَ الخِلَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَخَالِّيْنَ فِيْ غَيْرِ طَاعَةِ الله يُزَيِّنُ لِصَاحِبِهِ خِلَافَ الْحَقِّ، وَيَدْعُوْهُ إِلَى مَا يُوْبِقُهُ، وَيُوْرِثُهُ سُوْءَ الْعَاقِبَةِ بَدَلَ مَا كَانَ يَلْزِمُهُ مِنَ النَّصِيْحَةِ لَهُ فِيْ الدُّعَاءِ إِلَى تَرْكِ الْقَبِيْحِ وَفِعْلِ الحَسَنِ، ثُمَّ ٱسْتَثْنَى مِنْ جُمْلَةِ الْأَخِلَّاءِ الَّذِيْنِ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَصِيْرُوْنَ أَعْدَاءً إِلَّا ﴿الْمُتَّقِيْنَ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَتْ مُخَالَّتُهُ فِيْ طَاعَةِ الله وَعَلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَإِنَّهَا تَتَأَكَّدُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَا تَنْقَلِبُ عَدَاوَةً))[2].

إنَّ الشيخ الطوسي يؤكد في كلامه على التمييز بين الصحبة القائمة على أُسس دنيوية، والقائمة على أُسس أخروية، مع بيان ما يترتب على كُلٍّ منها في شخصية الإنسان، فالآية المباركة تظهر آثار تلك العلاقتين، وتدعو الإنسان إلى

---

(١) لسان العرب مادة (خل).

(٢) التبيان في تفسير القرآن ٩/ ٢١٤.

التأمل فيهما، واختيار ما فيها صلاحه، وصلاح الأخلاق عامة، كما ورد في الرواية عن الإمام الجواد عليه السلام، فالتقوى أعظم رابطة معنوية لها أثر كبير في صيانة العلاقة من الانحراف والوصول إلى رضوان الله تعالى في الاخرة، والفوز بثوابه، وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله: ((فَإِنَّهَا تَتَأَكَّدُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَا تَنْقَلِبُ عَدَاوَةً)).

٢- قال الفخر الرازي: ((وَالمَعْنَى ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَعْنِيْ فِيْ الْآخِرَةِ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يَعْنِيْ أَنَّ الخِلَّةَ إِذَا كَانَتْ عَلَى المَعْصِيَةِ وَالْكُفْرِ صَارَتْ عَدَاوَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَّا الْمُتَّقِيْنَ﴾، يَعْنِيْ الْمُوَحِّدِيْنَ الَّذِيْنَ يُخَالِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الْإِيْمَانِ وَالتَّقْوَى، فَإِنَّ خِلَّتَهُمْ لَا تَصِيْرُ عَدَاوَةً .... فَنَقُوْلُ: الَّذِيْنَ حَصَلَتْ بَيْنَهُمْ مَحَبَّةٌ وَمَوَدَّةٌ فِيْ الدُّنْيَا، إِنْ كَانَتْ تِلْكَ المَحَبَّةُ لِأَجْلِ طَلَبِ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، فَهَذِهِ المَطَالِبُ لَا تَبْقَى فِيْ الْقِيَامَةِ، بَلْ يَصِيْرُ طَلَبُ الدُّنْيَا سَبَبًا لِحُصُوْلِ الْآلَامِ وَالْآفَاتِ فِيْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَا جَرَمَ تَنْقَلِبُ هَذِهِ المَحَبَّةُ الدُّنْيَوِيَّةُ بُغْضَةً وَنُفْرَةً فِيْ الْقِيَامَةِ، أَمَّا إِنْ كَانَ الْمُوْجِبُ لِحُصُوْلِ المَحَبَّةِ فِي الدُّنْيَا الاشْتِرَاكَ فِيْ مَحَبَّةِ الله وَفِيْ خِدْمَتِهِ وَطَاعَتِهِ، فَهَذَا السَّبَبُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلنَّسْخِ وَالتَّغَيُّرِ، فَلَا جَرَمَ كَانَتْ هَذِهِ المَحَبَّةُ بَاقِيَةٌ فِيْ الْقِيَامَةِ، بَلْ كَأَنَّهَا تَصِيْرُ أَقْوَى وَأَصْفَى وَأَكْمَلَ وَأَفْضَلَ مِمَّا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا))[1].

إنَّ مما ينبغي بيانه ومعرفته أنَّ كُلَّ عمل له غاية معينة يجب الوصول إليها، والإنسان بطبيعته يبحث عن سعادته المطلقة، وهذه السعادة لا يمكنه أنْ يحققها لنفسه إلا من خلال معرفة ما تتقوَّم به النفس الإنسانية، والمعرفة هي

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٦٤١.

أساس ذلك، والله عز وجل من خلال تشريعاته المباركة يبيِّن للإنسان سُبُل ذلك، فالآية المباركة قد جعلت أنَّ أعظم الروابط الاجتماعية الثابتة والأسباب التي لا تزول، وهي القائمة على تقوى الله تعالى، وإلى هذا أشار الرازي بعد بيانه للآية المباركة: ((فَهَذَا السَّبَبُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلنَّسْخِ وَالتَّغَيُّرِ، فَلَا جَرَمَ كَانَتْ هَذِهِ المَحَبَّةُ بَاقِيَةٌ فِيْ الْقِيَامَةِ، بَلْ كَأَنَّهَا تَصِيْرُ أَقْوَى وَأَصْفَى وَأَكْمَلَ وَأَفْضَلَ مِمَّا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا)).

٣- قال السيد الطباطبائي: ((الْأَخِلَّاءُ جَمْعُ خَلِيْلٍ وَهُوَ الصَّدِيْقُ حَيْثُ يَرْفَعُ خِلَّةَ صَدِيْقِهِ وَحَاجَتَهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَخِلَّاءِ الْمُطْلَقِ الشَّامِلِ لِلْمُخَالَّةِ وَالتَّحَابِّ فِيْ الله، كَمَا فِيْ مُخَالَّةِ الْمُتَّقِيْنَ أَهْلَ الْآخِرَةِ، وَالْمُخَالَّةُ فِيْ غَيْرِهِ كَمَا فِيْ مُخَالَّةِ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَاسْتِثْنَاءُ الْمُتَّقِيْنَ مُتَّصِلٌ. وَالْوَجْهُ فِيْ عَدَاوَةِ الْأَخِلَّاءِ غَيْرِ الْمُتَّقِيْنَ أَنَّ مِنْ لَوَازِمِ الْمُخَالَّةِ إِعَانَةُ أَحَدِ الْخَلِيْلَيْنِ الْآخَرَ فِيْ مَهَامِ أُمُوْرِهِ، فَإِذَا كَانَتْ لِغَيْرِ وَجْهِ الله كَانَ فِيْهَا الْإِعَانَةُ عَلَى الشِّقْوَةِ الدَّائِمَةِ وَالْعَذَابِ الْخَالِدِ كَمَا قَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنِ الظَّالِمِيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِيْ لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيْلًا﴾[١]، وَأَمَّا الْأَخِلَّاءُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ فَإِنَّ مُخَالَّتَهُمْ تَتَأَكَّدُ وَتَنْفَعُهُمْ يَوْمَئِذٍ))[٢].

إنَّ جميع هذه الأقوال التي تقدمت تؤكد أهمية العلاقة والمحبة في الله تعالى ومقامها في الدنيا والآخرة، وهي موافقة لما تقدم من الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام في بيان الإخوة للمتقين، وعلاقة ذلك بصلاح الأخلاق

(١) سورة الفرقان: الآية ٢٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٨/ ١٢٢.

وفسادها، وأهمية بناء العلاقات الاجتماعية على تقوى الله؛ لما في ذلك من آثار كبيرة يراها الإنسان بنفسه.

إنَّ كُلَّ ما تقدم يدعو الإنسان إلى مراجعة التفس وما تتبناه من علاقات مختلفة قائمة على أسباب متعددة، فيجعل السبب الأساس لذلك هو ما يحقق له طاعة الله ورضوانه، والأثر المحمود في الدنيا والآخرة، وعدم الغرور بأسباب مادية زائلة، بل زائفة في بعض الأحايين، تزول آثارها بزوالها، فضلًا عن آثارها في تلويث الفطرة الإنسانية القائمة على محبة الآخرين، وإيثارهم طاعة الله على طاعة النفس الأمارة، وهذا يحتاج إلى معرفة ومجاهدة، وبهما يتم الوصول إلى الدرجات الرفيعة.

- الثالث: تأكيد السنة الشريفة على الإخوة.

إنَّ الروايات الواردة عن النبي وأهل بيته عليهم السلام في التأكيد على أهمية العلاقة بين الإخوان، وأنْ تكون في رحاب طاعة الله، ونذكر من تلك الروايات ما يأتي:

- روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((خَيْرُ إِخْوَانِكَ مَنْ أَعَانَكَ عَلَى طَاعَةِ الله، وَصَدَّكَ عَنْ مَعَاصِيْهِ، وَأَمَرَكَ بِرِضَاهُ))[1].

فالحديث الشريف يذكر هذه الصفات الثلاث لخير الإخوان، والقائمة كلها على طاعة الله ورضوانه، والتي هي موافقة للآية المباركة المؤكدة على الخلة بين المتقين، فيجب التأمل فيها ومعرفة سُبُلها، والدعوة إليها، والعمل على أساسها.

---

(١) ميزان الحكمة ١/ ٤٦.

- وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((عَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصِّدْقِ فَأَكْثِرْ مِنِ اكْتِسَابِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عِدَّةٌ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَجُنَّةٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ))[١].

فالحديث واضح الدلالة في الدعوة إلى الإخوة المتمثلة بالأخلاق الفاضلة، القائمة على الصدق، وهو أعظم رابطة بين الناس عامة، والمؤمنين خاصة، بل في الحديث دعوة إلى الإكثار منهم؛ لما يتصفون بهذه الصفة التي هي مقياس الإيمان كما في بعض الروايات.

- روي عن الإمام الباقر عليه السلام: ((مَنِ اسْتَفَادَ أَخًا فِي الله، عَلَى إِيْمَانٍ بِالله، وَوَفَاءٍ بِإِخَائِهِ، طَلَبًا لِمَرْضَاةِ الله، فَقَدِ اسْتَفَادَ شُعَاعًا مِنْ نُوْرِ الله، وأمانًا من عذاب الله، وحجةً يفلج بها يوم القيامة، وعزًّا باقيًا، وذكرًا ناميًّا....))[٢].

إنَّ الحديث الشريف يؤكد الآثار المباركة للإخوة في الله تعالى، وعلى الإيمان والتقوى، وأنْ تكون الرابطة من أجل طاعته ورضوانه؛ لتظهر آثارها المادية والمعنوية على الجميع، والحديث يذكر آثارًا كريمة خمسة لتلك الإخوة والصحبة (النور، والأمان، والفوز، والعز، والذكر).

- روي عن الإمام الصادق عليه السلام: ((الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، عَيْنُهُ، وَدَلِيْلُهُ، لَا يَخُوْنَهُ، وَلَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَغُشُّهُ، وَلَا يَعِدُهُ عِدَةً فَيُخْلِفَهُ))[٣].

إنَّ الحديث يؤكد معنى الإخوة الحقيقية التي يريدها الله تعالى لعباده، وما يجب أنْ يكون عليه المؤمنون؛ لنرى الأثر القرآني للأخلَّاء في المجتمع، وتبرز

---

(١) الأمالي، الشيخ محمد بن علي بن الحسين الصدوق ص٣٨٠.

(٢) تحف العقول ص٢١٣.

(٣) الكافي ٢/ ١٦٦ كتاب (الإيمان والكفر، باب (إخوة المؤمنين بعضهم لبعض)، الحديث ٣.

مظاهر تلك الإخوة في الدنيا على سلوك المؤمن، فضلًا عمَّا سيلحق ذلك من الثواب العظيم، والمقام الرفيع في الآخرة، فما أعظمها من حقوق خمسة لهذه الإخوة (عينه، ودليله، وأمانه، وعدله، وصدقه).

- روي عن الإمام محمد الجواد عليه السلام: ((مُلَاقَاةُ الْإِخْوَانِ نَشْرَةٌ، وَتَلْقِيْحٌ لِلْعَقْلِ، وَإِنْ كَانَ نَزْرًا قَلِيْلًا))[1].

إنَّ هذه الرواية الشريفة وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي تنظم العلاقات بين المؤمنين لها آثار تربوية كبيرة للفرد والمجتمع؛ لذا فإنَّ الرواية التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام هي موافقة تمامًا لدعوة الثقلين –القرآن والعترة– للتمسك بها؛ من أجل تحقيق السعادة والرضا للمؤمنين وغيرهم.

هذا ما حاولت بيانه بإيجاز حول الروايات التفسيرية للإمام الجواد عليه السلام، فأرجو أنْ تكون قراءة قرآنية جديدة لذلك التراث الروائي العظيم، وأنْ يوفقنا لإتمام مشروعنا مع الروايات الأخرى الواردة عن المعصومين عليهم السلام؛ لتنهل الأمة من موارد العلم التي هي أهل لذلك، فتقبل اللهم بأحسن قبولك، إنك سميع مجيب.

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري ٨/ ٣٢٥.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١- الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٩م)، تحقيق وتعليق: الدكتورة فوقية حسين محمود، (مط التقدم، مصر، ط١، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م).

٢- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)، (مط سليمان زاده، قم، ط٢، ١٤٢٨هـ).

٣- الإلهيات، الشيخ حسن محمد مكي العاملي، الإلهيات، (مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، ط٦، ١٤٢٦هـ).

٤- الأمالي، الشيخ محمد بن علي الصدوق (ت٣٨١هـ/ ٩٩١م): تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، (مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤١٧هـ، د.مط).

٥- الأمثل في تفسير كتاب المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، (دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م).

٦- أوائل المقالات، الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان المفيد (ت٤١٣هـ/ ١٠٢٢م)، تحقيق: الشيخ إبراهيم الأنصاري، (دار المفيد، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م).

٧- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، (دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م).

٨- بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١٠هـ/ ١٦٩٩م)، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م).

٩- البرهان في تفسير القرآن، السيد أبو المكارم هاشم بن سليمان البحراني (ت١١٠٧/ ١٦٩٥م)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

١٠- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، (المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠هـ٢٠٠٩م، د.ط).

١١- بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفار (ت٢٩٠هـ/ ٩٠٣م)، تحقيق: السيد محمد حسين المعلم، (مط شريعت، قم، ط١، ١٤٢٦هـ).

١٢- البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي (ت١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، (مط العمال المركزية، بغداد، ١٤٢٠هـ ١٩٨٩م).

١٣- التبيان في تفسير القرآن، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، (مط مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤٠٩هـ).

١٤- تحف العقول، أبو محمد الحسن بن شعبة الحراني (ت ق٤هـ)، تعليق: الشيخ حسين الأعلمي، (مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٧، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م).

١٥- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلامة حسن المصطفوي (ت١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، (دار الكتب العلمية، لبنان، ط٣، ٢٠٠٩م).

١٦- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي (ت ق٣)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، (مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم، ط١، ١٤٣٥هـ).

١٧- التفسير الكبير، محمد بن عمر بن الحسين الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، تصحيح: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م).

١٨- تهذيب الأحكام، أبو جعفر محمد بن الحسن الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر مكتبة الصدوق، طهران، ط١، ١٤١٧هـ.

١٩- التوحيد، أبو جعفر محمد بن علي الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ/ ٩٩١م)، تعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، (دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت).

٢٠- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، (مط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، د.ط).

٢١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن "تفسير الطبري"، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٩٢م)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، د.م).

٢٢- الجامع الصحيح، أبو الحسين مسلم بن الحجاج مسلم النيسابوري (ت٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت).

٢٣- حق اليقين في معرفة أصول الدين، السيد عبد الله شبر (ت١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م) ، (مط مهر، قم، ط٣، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م).

٢٤- دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام، الشيخ باقر الإيرواني، (مط برهان، إيران، ط٢، ١٤٢٥هـ).

٢٥- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخياط، (دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت).

٢٦- شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، نجم الدين أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن المحقق الحلي (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، تعليق: السيد صادق الشيرازي، (دار القارىء، بيروت، ط١١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م).

٢٧- شرح أصول الكافي، الشيخ محمد صالح المازندراني (ت١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م)، تحقيق وتعليق: الميرزا أبو الحسن الشعراني، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م).

(٢٨) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أبو العباس أحمد بن يوسف السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ/ م)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م).

٢٩- غرر الحكم ودرر الكلم، ناصح الدين أبو الفتح عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي (ت٥٥٠هـ/ ١١٥٥م)، ترتيب وتدقيق: عبد الحسن دهيني، (دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م).

٣٠- فقه القرآن، قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت٥٧٣هـ/ ١١٧٧م)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، (مط الولاية، قم، ط٢، ١٤٠٥هـ).

٣١- في رحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الشيخ محمد حسن آل ياسين (ت١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، (مط الديواني، بغداد، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، د.ط).

٣٢- القرآن في الإسلام، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)، ترجمة السيد أحمد الحسيني، (ط١، مط سرور، قم، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م).

٣٣- الكافي، محمد بن يعقوب الشيخ الكليني (ت٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، تصحيح وتعليق: على أكبر الغفاري، (دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ، د.ط).

٣٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (تفسير الكشاف)، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٢١هـ ٢٠٠١م).

٣٥- كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى الإربلي (ت٦٩٣هـ/ م)، (دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م).

٣٦- كنز العرفان في فقه القرآن، جمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري (ت٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م)، تحقيق: الشيخ عبد الرحيم العقيقي البخشايشي، (مط نويد إسلام، قم، ط٣، ١٤٢٨هـ).

٣٧- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرَّم بن منظور، (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، (مط الميرية ببولاق، مصر، ط١، ١٣٠١هـ).

٣٨- المبسوط في فقه الإمامية، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠/ ١٠٦٨م)، تحقيق وتعليق: السيد محمد تقي الكشفي، (مط الحيدرية، طهران، ١٣٨٧هـ، د.ط).

٣٩- مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي (١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، (مط الحيدري، قم، ط١، ١٣٧٥هـ).

٤٠- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٤١- مسار الشيعة في مختصر تواريخ الشريعة، الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت٤١٣هـ/ ١٠٢٢م)، تحقيق: الشيخ مهدي نجف، (دار المفيد، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م).

٤٢- مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، الشيخ فاضل الجواد الكاظمي (ت ق١١هـ)، (مط ستارة، قم، ط٤، ١٤٢٩هـ).

٤٣- مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، زين الدين علي بن أحمد الشهيد الثاني (ت٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م)، تحقيق: مؤسسة المعارف الإسلامية، (مط بهمن، قم، ط١، ١٤١٣هـ).

٤٤- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، (مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م).

٤٥- معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ/ ٩٩١م)، تصحيح: علي أكبر الغفاري، (مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٣٧٩هـ، د.ط).

٤٦- المعجزة الخالدة، السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني (ت١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م)، (مط الميناء، بغداد، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، د.ط).

٤٧- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، السيد أبو القاسم الخوئي (ت١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، (ط٥، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م. د.مط، د.م).

٤٨- معجم مصطلحات الرجال والدراية، محمد رضا جديدي نزاد، (مط دار الحديث، قم، الناشر دار الحديث، ١٤٢٤هـ).

٤٩- معجم لغة الفقهاء، الدكتور محمد رواس قلعجي، (دار النفائس، يروت، ط٢، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م).

٥٠- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، (مط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، د.ط).

٥١- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، تعليق: نعيم زرزور، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م).

٥٢- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)، ضبط: هيثم طعيمي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م).

٥٣- مناهج اليقين في أصول الدين، أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، تحقيق: يعقوب الجعفري المراغي، (مط إسوة، ط١، ١٤١٥هـ، د.م).

٥٤- منهاج الصالحين، السيد أبو القاسم الخوئي (ت١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، (مط العمال المركزية، بغداد، ط٢٦، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م).

٥٥- منهاج الصالحين، السيد علي الحسيني السيستاني، (مط مهر، قم، ط١، ١٤١٤هـ).

٥٦- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، تحقيق: دار الحديث، (دار الحديث، قم، ط٢، ١٤١٦هـ).

٥٧- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٣هـ١٩٨٢م)، تصحيح: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٥٨- نهج البلاغة، محمد بن الحسين الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ/ ١٠١٥م)، شرح: محمد عبده، (مط الاستقامة، مصر، د.ط، د.ت).

٥٩- وسائل الشيعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، (مط ستارة، قم، ١٤١٦هـ، قم).

٦٠- وجوه القرآن، أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد النيسابوري (ت٤٣١هـ/ ١٠٣٩م)، تحقيق وتعليق: د. نجف عرشي، (مؤسسة الطباعة في الأستانة الرضوية، مشهد، ط٢، ١٤٣٢هـ).

*** الدوريات:**

- بلاغة المشاكلة في القرآن الكريم، د. باسم محمد إبراهيم، مجلة الفتح، كلية التربية الأساسية جامعة ديالى المجلد ٤، العدد ٣٢، السنة ٢٠٠٨م.

الفهرس

مقدمة ٥

تمهيد: التفسير بالمأثور وأثره في التفاسير القرآنية ٧

* الآية الأولى: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيْرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ﴾ ٩

- الأول: تعريف الباغي والعادي ١٠

- الثاني: أقوال المفسرين ١١

- الثالث: آيات الأحكام ١٥

* الآية الثانية: قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُوْنَ إِلَّا كَمَا يَقُوْمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ ١٧

- الأول: تعريف الربا وأنواعه ١٨

- الثاني: أقوال المفسرين ١٩

- الثالث: آيات الأحكام ٢٣

* الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الْخَبِيْرُ﴾ ٢٧

- الأول: ما المراد بالإدراك ٢٨

- الثاني: أقوال المفسرين ٣٠
- الثالث: مناقشة الروايات الواردة في الرؤيا ٣٦
* الآية الرابعة: قال تعالى:﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٣٩
- الأول: ما المراد بالمكر الإلهي ٤٠
- الثاني: أقوال المفسرين ٤٣
- الثالث: الإصرار على الذنوب ٤٥
* الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوْا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ ٤٨
- الأول: الخيط الأبيض والأسود ٤٩
- الثاني: أقوال المفسرين ٥١
* الآية السادسة: قال تعالى: ﴿فِيْهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيْمٍ﴾ ٥٣
- الأول: الأحاديث الواردة في بيان وتحديد ليلة القدر ٥٤
١- ليلة القدر هي الثالثة والعشرون من شهر رمضان ٥٤
٢- ليلة القدر هي الحادية والعشرون أو الثالثة والعشرون من شهر رمضان ٥٤
٣- ليلة القدر هي التاسعة عشر أو الحادية والعشرون أو الثالثة والعشرون من شهر رمضان ٥٥
- الثاني: أقوال المفسرين ٥٦

* الآية السابعة: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾ ٥٩
- الأول: التوحيد وما يتعلق به ٥٩
- الثاني: أقوال المفسرين ٦٣
* الآية الثامنة: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ بَعَثَ فِيْ الْأُمِّيِّيْنَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِيْ ضَلَالٍ مُبِيْنٍ﴾ ٦٨
- الأول: هل كان النبي يقرأ ويكتب قبل البعثة أم لا ٧٠
- الثاني: هل كان النبي يقرأ ويكتب بعد البعثة أم لا ٧٣
* الآية التاسعة: قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ٧٨
- الأول: المراد من الهداية ٧٩
- الثاني: أقوال المفسرين ٨١
* الآية العاشرة: قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ٨٧
- الأول: المراد من الأعراف ٨٨
- الثاني: أقوال المفسرين ٨٩
* الآية الحادية عشرة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوْا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِيْ الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيْرٌ﴾ ٩٥
- الأول: الزواج في القرآن الكريم ٩٦

- الثاني: الروايات الشريفة في الزواج والتحذير من الفتنة والإفساد ٩٩
* الآية الثانية عشرة: قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ١٠٣
- الأول: ما المراد من الأخلاء ١٠٤
- الثاني: أقوال المفسرين ١٠٥
- الثالث: تأكيد السنة الشريفة على الإخوة ١٠٨
قائمة المصادر والمراجع ١١١
الفهرس ١١٩

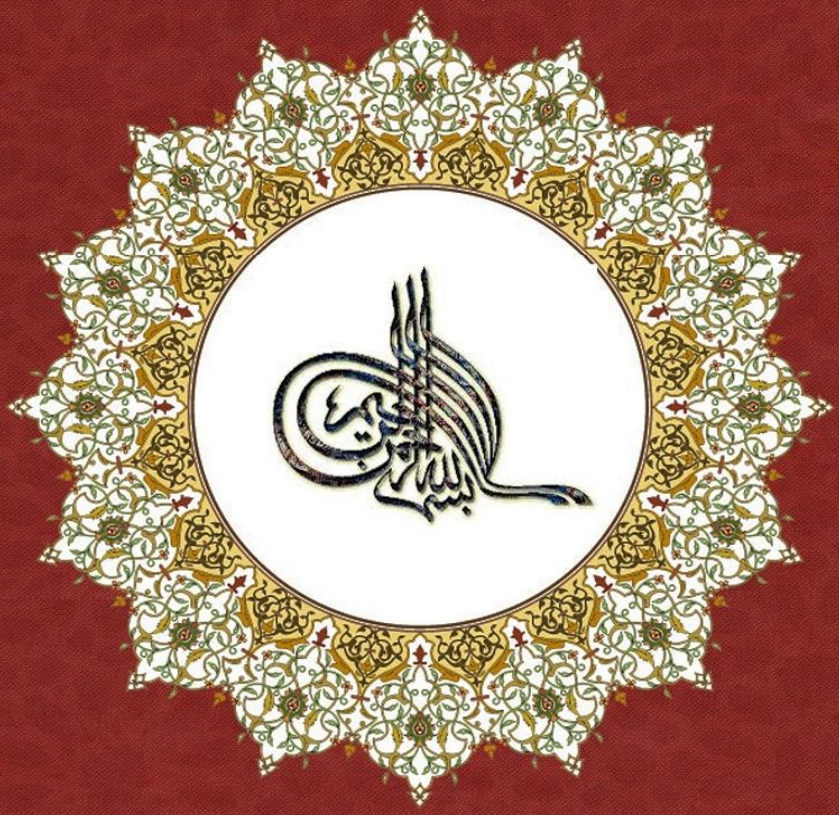

إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي
ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا

الكاظمية للتأليف والتحقيق والنشر

دار الرافد - قم